القرآن بين مصطلحي النص والخطاب

"قراءة في ضوء التراث والدرس الحديث"

الأستاذ المساعد الدكتور
سيروان عبد الزهرة الجنابي

المدرس المساعد
خالد توفيق مزعل

جامعـــــة الكوفـــــة ـ كليـــــة الآداب

القرآن بين مصطلحي النص والخطاب "قراءة في ضوء التراث والدرس الحديث"

الأستاذ المساعد الدكتور
سيروان عبد الزهرة الجنابي

المدرس المساعد
خالد توفيق مزعل

جامعـــــة الكوفـــــة ـ كليـــــة الآداب

المقدمة:ـ

شهد العصر الحديث ظهور مصطلحات جديدة وانبعاث أخرى قديمة نتيجة الاستعمالات المتشعبة التي سلك فيها الاصطلاح مجالات معرفية شتى؛ لذا جاءت رؤى الدارسين متنوِّعة في نظرتهم للمفهوم من حيث كينونته المادية والمعنوية، ووظيفته في السياق الذي يرد فيه، فاتخذ بعضها مفهوماً مغايراً لما كان عليه في عصور سابقة، وغدا متنازعاً عليه بين الدارسين؛ فنتج عن ذلك جدل حول المفهوم لم يكن محض المصادفة، بل هو وليد التحوُّلات المعرفية التي مرَّ بها المفهوم في الدراسات من جيل لآخر، حتى وصل إلينا حاملاً في طياته سمتي التنوع والشتات، وهو أمر استوقف الدارسين حديثاً عند جملة من المصطلحات باحثين عن مفهوم قارٍّ لها دون جدوى؛ ومن هذه المصطلحات، مصطلحا (النص والخطاب)؛ إذ اتَّخذ كل منهما مفهوماً اصطلاحياً اتسم بالتنوُّع والاختلاف من باحث لآخر، سواء على مستوى الاتجاهات المعرفية المتعددة أم على مستوى الاتجاه المعرفي الواحد، ومن جهة أخرى ظهر الخلط بينهما في الثقافة الغربية، ولاسيما عند النقاد واللغويين العاملين في مجال لسانيات النص وتحليل الخطاب بشتى أصنافه، ثم انتقل المصطلحان الى الدرس العربي الحديث، فانتقل معه الخلط الحاصل عند الغربيين، فعَسُرَ على بعض الدارسين العرب التمييز بينهما مثلما عَسُرَ على أقرانهم الغربيين؛ بيد أنَّ بعض أطلق هذين المصطلحين وصفاً للقرآن الكريم،

فقالوا (النص القرآني) تارةً و(الخطاب القرآني) تارةً أخرى، وما عدنا ندري الى أيهما ينتمي القرآن، أهو نص أم خطاب، ومن جهة أخرى لم يعد الأمر واضحاً في استعمال الدارسين لهما مع القرآن، أأريد به معنىً من المعاني اللغوية التي وقف عليها أصحاب المعجمات العربية، أم أريد به المصطلح الحديث.

من هنا سعى الباحث في هذه الدراسة الى لملمة الشتات الحاصل حول المصطلحين؛ ليكون أساساً يُستَنَد إليه في وصف القرآن بهما، فكان سبيل الباحث إلى غايته اعتماد القراءة المزاوجة بين القديم والحديث، بين التراث الذي يمثل القفا والوجه الذي تمثله الحداثة، والخروج منها برؤيا تسعى إلى الإحاطة بأبعاد القضية الكبرى التي تمثِّل إشكال البحث، وهو سبيل اقتضى تقصِّي جذور المصطلحين في التراث أولاً، ثم متابعة التدرُّج الحاصل عند الدارسين المحدثين في استعمالاتهم لهذين المصطلحين ثانياً؛ للخروج من ذلك بنتيجة تنسب القرآن الى أحدهما أو الى كليهما؛ لذا قام البحث على مدخل وثلاثة مباحث تلتها خاتمة بأهم النتائج التي خلص إليها البحث.

أما المدخل فقد مهد فيه الباحث للموضوع، وجاء المبحث الأول بياناً لمفهوم النص في التراث ثم الدرس الحديث، وفي المبحث الثاني تتبع الباحث فيه مفهوم الخطاب في التراث، ثم عمد الى بيان مفهومه في الدرس الحديث، أما المبحث الثالث فقد سعى فيه الباحث الى الوقوف على حدٍ فاصلٍ بين النص والخطاب؛ إذ تكفل ببيان الفرق بين المصطلحين، ثم ختم الباحث بخاتمة أحصى فيها أهم النتائج التي تمخضت عن البحث، تلتها قائمة بالمصادر والمراجع المعتمدة في البحث.

مدخل:

لقد دأبت الدراسات الأكاديمية على ضبط المصطلحات وتحديدها بدقة

عالية قبل المضي بإطلاقها على مسمياتها التي تمثل مصاديقَ لها، ولعلَّ سبيل الدارسين إلى تحقيق ذلك يكمن أولاً في تأصيل المصطلح، من خلال العودة إلى جذوره التراثية، ذلك إنْ كان له أصل في التراث، وبيان المعاني التي استُعمل فيها المصطلح عند القدماء، ثم الانتقال إلى نطاق الدرس الحديث، وبيان الدلالات التي اكتسبها من استعمالاته المتنوعة وتطوره عبر المراحل التي مرَّ بها حتى استوى مصطلحاً معرفياً يتداوله الدارسون المتخصصون في مجال معرفي معين، ومن تتمة ذلك، بيان الفارق بينه وبين المصطلحات القريبة منه أو المتداخلة معه في الاستعمال؛ سعياً إلى ضبط حدوده، وتبرئته من أي دال لا يمتدُّ إليه بصلة، ولعلَّنا في هذا المبحث نكون بإزاء مقاربة بين مصطلحين متداخلين اصطنعتهما الدراسات الحديثة، بعدما نأت بهما عن مدلوليهما التراثي، فأصبح الباحث بحاجة إلى الوقوف على حدَّيهما في التراث، ثم بيان الفارق الحقيقي بينهما بلحاظ الدرس الحديث؛ وذلك ابتغاء الظفر بمفهوم علمي رصين لكليهما، تُؤسَّس عليه رؤى الباحثين في دراساتهم التطبيقية.

من هنا حرص الباحث على عدم نسبة القرآن إلى سمتي النصية والخطابية في هذا البحث قبل الوقوف على طبيعة هذين المفهومين في الثقافة الإنسانية؛ كي يتسنى لنا أن نصف القرآن وصفاً دقيقاً ينسبه إلى أحدهما أو إلى كليهما؛ ذلك بأنَّ الدراسات الحديثة شهدت انبعاث مصطلحي (النص والخطاب) بحلة جديدة التبست على الدارسين، فدأبوا في استعمالهما منفردين تارة، ومترادفين تارة أخرى، فمنهم من لم يفرق بينهما؛ إذ هما مصطلح واحد من وجهة نظره، على حين فصل بينهما آخرون على أساس اختلاف الكينونة المادية والدلالية بينهما، ومن ثم اختلاف ماهية المفهوم المتأصل في كل واحد منهما عن الآخر.

هكذا شهدنا النص والخطاب في استعمال الدارسين، ما أدى إلى

اضمحلال الحدود الدقيقة الفاصلة بينهما؛ لذا بات لزاماً علينا أن نتأمَّل في هذين المصطلحين بقراءة متأنية، متخذين من المنظورين التراثي والحديث سبيلاً لتحقيق المراد، سعياً إلى مقاربة بين المصطلحين نقف من خلالها على أوجه التلاقي والاختلاف بينهما، فإذا ما بلغ الباحث هذا، فإنَّه- حينئذٍ- يكون قد وقف على مفهوم تقريبي لكليهما، ولا يتم لنا ذلك إلاّ إذا تساءلنا ههنا قائلين: إذا كان القرآن استعمالاً لغوياً فريداً، فإلى أي الوصفين ينتمي؟ أهو نص أم خطاب؟.

وللإجابة عن هذا السؤال لا بد لنا من تقصي سيرورة هذين المصطلحين على النحو الآتي:

المبحث الأول

مفهوم (النص) في التراث والدرس الحديث

١ ـ مفهوم النص في التراث:

تمثل كلمة (Text) المعادل الغربي كلمة (نص) العربية، وإذا بحثنا عن جذور كلمة (Text) في التراث اللاتيني نجدها مشتقة من كلمة (Textus)، وهذه الكلمة تدل على النسيج (Tissu)، وكلمة النسيج هي الأخرى مشتقة من كلمة (Texere) التي تعني نسج أو جدلت المرأة شعرها[١]، وإذا عدنا الى المعجمات العربية نجد كلمة (نَسَجَ) تدل على جملة من المعاني، منها التنظيم وبراعة التصنيع[٢]، فإذا كان النص يعني النسيج في التراث الغربي، فإنَّ النسيج ينضوي على سمة البراعة في إنتاج الأشياء وخلقها على أساس تنظيمي خاص.

أما في التراث العربي فقد دلَّت مادة (نص) على جملة من المعاني ذكرها أرباب المعجمات؛ إذ جاء في معجم العين ((نَصَصْتُ الحديث إلى فلان نَصّاً

أي رَفَعْتُه.... والمَنَصَّةُ التي تَقعُدُ عليها العَروسُ.... ونَصْنَصْتُ الشيءّ حَرَّكْتُه، ونَصَصْتُ الرجلَ استَقصَيْتُ مَسْأَلتَه عن الشيءِ، يقال: نَصَّ ما عنده أي استقصاه، ونصُّ كلِّ شيءٍ مُنتهاه))[٣]، وذكر ابن فارس (ت٣٩٥هـ) أنَّ ((النون والصاد أصلٌ صحيح يدلُّ على رَفعٍ وارتفاعٍ وانتهاء في الشّيء، منه قولُهم: نَصَّ الحديث إلى فلان رفَعَه إليه.... ونصُّ كلِّ شيء مُنتهاه.... ونصَصْتُ الرّجُل استقصيتُ مسألتَه عن الشَّيء حتَّى تَستخرِجَ ما عنده، وهو القياس؛ لأنَّك تبتغي بلوغَ النِّهاية.... والنَّصنصة التَّحريك))[٤]، ويرى ابن منظور (ت٧١١هـ) أنَّ النص يدل على جملة من المعاني هي الإسناد، ومنتهى الشيء واكتماله، والتوقيف والتعيين للشيء، ويدل على الظهور والشهرة، ومنه قول الفقهاء: نص القرآن ونص السنة، إشارة إلى الأحكام التي يدل عليها ظاهر لفظهما، ويدل اللفظ كذلك على الاستواء والاستقامة[٥].

نخلص مما تقدم إلى أنَّ الجذر اللغوي لكلمة (النص) يدل على جملة من المدلولات تنوعت بين الظهور والوضوح، والإسناد، والرفع، والتعيين، والتحريك، والانتهاء والاكتمال، والاستقصاء، والاستقامة والاستواء في الشيء، ولكل منها سياقه الذي يُستعمل فيه كما ثبت ذلك في نصوص المعجميين.

وإذا ما بحثنا عن الصلة الرابطة بين الأصل الغربي لكلمة (نص) والأصل العربي لها، فإنّنا نلمحها في إشارة الطرفين إلى أنَّ دلالة كلمة (نص/ Text) تنضوي على الكمال والاستواء.

أما في التراث اللغوي والنقدي عند العرب فلم يحظَ لفظ النص بفهم يراه مصطلحاً ذا منحى شمولي جامع يقترب من مدلوله الاصطلاحي الذي اكتسبه حديثاً؛ بل أنَّ القدماء من علماء العربية دأبوا في تسمية كل ظهورٍ أو تجلٍ نصاً، بحسب انتمائه إلى جنس معيَّن أو نوع خاص من الكلام[٦]، ولم يحظَ

النص بفهم يبتعد به قليلاً عن معانيه المعجمية إلا عند علماء الأصول الذين منحوه مفهوماً ينص على أنَّه ما لا يحتمل إلا معنى واحداً[٧]، فضلاً عن ذلك ثمة إشارات إلى مفهوم النص نجدها عند الأصوليين، نحو قولهم: عبارة النص، وإشارة النص، وهذه الإشارات ((يُفهم منها أنَّهم يطلقونه ﴿أي النص﴾على كل ملفوظ مفهوم المعنى من الكتاب والسنة، سواء أكان ظاهراً أم نصاً أو مفسراً[٨]، أي إنَّ كل ما ورد عن صاحب الشرع فهو نص))[٩]، وفي مقابل هذا الرؤيا قام الدكتور عبد القادر شرشار بمتابعة لمفهوم النص في مصنفات التراث الأصولي، اتضح له من خلالها أنَّ كلمة (نص) حظيت بكثرة استعمالها في مظان الأصول، بيد أنَّها لم ترقَ إلى مستوى الاصطلاح، بل بقيت محصورة في سياق الاستعمالات التي استندت إلى دلالاتها المعجمية[١٠]، وهذا يدل على أنَّ علماء العربية القدماء لم يتجاوزوا في استعمالهم لفظ النص معانيه المعجمية[١١]، ومن ثم لم يكن مفهوماً ذا دلالة اصطلاحية متواضع عليها من لدن القدماء كما هو في المنظور الحديث، من هنا لازم النص دلالاته المعجمية في مدوَّنات التراث العربي، ولعلَّ تعريف علي بن محمد الجرجاني (ت٨١٦هـ) للنص خير شاهد على المفهوم الذي اكتسبه عند الأصوليين؛ إذ عرَّف النص بأنَّه ((ما ازداد وضوحاً على الظاهر لمعنى المتكلم.... وما لا يحتمل إلا معنى واحداً، وقيل: ما لا يحتمل التأويل))[١٢]، وهذا التعريف في حقيقته مأخوذ عن أصوليي الأحناف في نظرتهم للنص[١٣]، وبهذا يكون الجرجاني قد استند إلى سمة الوضوح التي تمثل أساساً في تجلّي معنى النص عنده، وما خالف ذلك من الكلام لا يُعد نصاً عند القدماء عموماً.

٢ـ مفهوم (النص) في الدرس الحديث:

على الرغم من مضي ما يناهز الأربعين عاماً على نشوئه، ما يزال علم لغة

النص فرعاً فتيّاً من فروع علم اللغة الحديث[١٤]، فقد كانت المحاولات الأولى التي ظهرت في مطلع السبعينيات من القرن الماضي على يد اللغوي الهولندي (فان دايك) هي فاتحة عهد جديد بفرع من فروع علم اللغة أطلق عليه الدارسون تسمية (علم لغة النص)، بوصفه نظرية تُعنى بنحو النص بدلاً من نحو الجملة الذي تسيَّد الدراسات اللغوية قبل ذلك، ومنذ ذلك الحين بدأت الدراسات في أوربا وأمريكا تتجاذب البحث في هذا العلم الجديد، فمنها ما اقتصر على التنظير، ومنها ما تجاوز ذلك وامتد إلى التطبيق، فظهرت محاولة فان دايك الأولى بعنوان (Some Aspects Of Text Grammars) سنة ١٩٧٢م، إذ ترجمها الدارسون بعبارة: (بعض مظاهر أنحاء النص)[١٥]، تبعتها دراسة اللغويَّين الأمريكيَّين هاليداي ورقية حسن سنة ١٩٧٦م، فسلطت الضوء على طبيعة التماسك النصي وفاعليته في اللغة الانكليزية؛ لذا جاءت بعنوان (Cohesion In English)، ثم ظهرت في أمريكا أيضا دراسة للغوي روبرت دي بوجراند بعنوان (النص والخطاب والإجراء) وكان ذلك سنة ١٩٨٠م، وهكذا تتابعت الدراسات تترى على علم لغة النص، فظهر تيار لغوي في ألمانيا تبنّى نحو النص منذ سبعينيات القرن العشرين، وصار ينادي- فيما بعد- بضرورة إحلاله محل نحو الجملة في الجامعات والمعاهد[١٦].

على أنَّنا لسنا معنيين في هذا المقام بتقديم سرد تاريخي لظهور هذا العلم بقدر ما يعنينا بيان أثره في تنوع مفهوم النص؛ فثمة من تكفَّل متابعة نشأته من العرب والغربيين[١٧].

إذن ارتبط مصطلح النص حديثاً بالدراسات الغربية؛ ثم ظهر هذا المصطلح عند الدارسين العرب المحدثين بفهم مُؤَسَّس على الوافد الغربي الجديد؛ لأنَّ النص اتخذ في تلك الدراسات مفهوماً غاير المفهوم التراثي الذي وقفنا عليه، بعدما أصبح النص محوراً لتلك الدراسات في النصف الثاني من القرن

العشرين، ومن أجل ذلك صار لزاماً علينا أن نقف على مفهومه في الدراسات الحديثة اللغوية منها والنقدية كذلك؛ لأنَّها نظرت إلى النص على أنّه بنية منفردة عن أنساق الاستعمال اللغوي الأُخَرَ، وبحسب هذه الرؤيا أحتل مفهوم النص أهمية بالغة في الدرس اللغوي والنقدي الحديث.

أ ـ مفهوم النص في الدرس النقدي الحديث:

بدءاً ينبغي القول إنَّه من الصعوبة بمكان الوقوف على تعريف محدد لمصطلح (النص) في الدراسات الحديثة؛ لتعدد الرؤى واختلافها من باحث لآخر، وإذا كان لا بد من بداية فإنَّ أول ما ينبغي البدء به هو البحث عن مفهوم النص في الدرس النقدي الحديث، ولاسيما عند الناقدة البلغارية جوليا كريستيفا والناقد الفرنسي رولان بارت؛ ذلك بأنَّ النص اتخذ مفهوماً اصطلاحياً على يد هذين الناقدين، وكانت كريستيفا أسبق إلى ذلك من بارت؛ إذ بدأت الحديث عن مفهوم كلي للنص في كتابها (علم النص) الذي أفصحت فيه عن فهمها للنص، وهو فهم يربط النص بالواقع الاجتماعي والحركة التأريخية للنتاج البشري، فهي ترى أنَّ النص ((خاضع لتوجُّهٍ مزدوج نحو النسق الدال الذي يُنتَجُ ضمنه لسانٌ ولغةُ مرحلةٍ ومجتمعٍ محددين، ونحو السيرورة الاجتماعية التي يسهم فيها كخطاب))[١٨]، وقد قادها هذا الفهم إلى أن تدلي برأيها عن دراسة النص واستكشاف ماهيته، فهي ترى أنَّ دراسة النص والتماس دلالاته لا تقتصر على تحليل بنيته اللغوية فحسب؛ لأنَّ عمل الدلالات النصية يتجاوز قواعد الخطاب التواصلي على الدوام، وهذا يجعل من النص كياناً غير مقتصر في كينونته ودلالاته على الناحيتين اللفظية والقواعدية؛ بل هو ((كل ما ينصاع للقراءة عبر خاصية الجمع بين مختلف طبقات الدلالية الحاضرة هنا داخل اللغة، والعاملة على تحريك ذاكرته التأريخية، وهذا يعني أنّه ممارسة مركَّبة يلزم الإمساك بحروفها عبر نظرية للفعل

الدال الخصوصي الذي يمارس لَعِبَهُ داخلها بوساطة اللغة، وبهذا المقدار فقط يكون لعلم النص علاقة ما مع الوصف اللغوي))[١٩]، ولّما كانت العلاقة بين عالَم النص ومبناه اللغوي تُمثِّل مستوى من مستويات التجلّي النصي، فقد عرَّفته كريستيفا بقولها ((النص جهاز عبر لغوي يعيد توزيع نظام اللغة بوساطة الربط بين كلام تواصلي يهدف إلى الإخبار المباشر وبين أنماط عديدة من الملفوظات السابقة عليه أو الملتزمة معه))[٢٠]، وهذا التعريف ينضوي على دلالتين:[٢١]

١- إنَّ العلاقة الرابطة بين النص واللغة التي يتجسَّد بوساطتها علاقة بنّاءة تقوم على إعادة توزيع العناصر اللغوية الموجودة أصلاً بصورة جديدة وصولاً الى غايات مضمونية معينة، وهذا يجعل من النص قابلاً للتناول عبر المقولات المنطقية أكثر من المقولات اللغوية الخالصة.

٢- إنَّ النص الواحد عبارة عن تداخل بين نصوص عديدة؛ فهو ناشئ عن التقاء مجموعة من الملفوظات والمقولات الوافدة من نصوص أُخَرَ سابقة عليه أو متزامنة معه، فضلاً عن تنافيها، وهو ما أطلقت عليه كريستيفا مصطلح (التناص) Intertextualite [٢٢].

نفهم من هذا أنَّ كريستيفا تتجاوز الكيان اللغوي الظاهر إلى ما بعده في تحديد مفهوم النص، وبحسب هذا الفهم يكون النص عبارة عن علاقات مخصوصة بين ألفاظ اللغة والعالم الخارجي، وهذه العلاقات تعمل على إعادة بناء النظام اللغوي على وفق رؤيا جديدة تستند إلى معطيات العالم الخارجي، بما في ذلك النصوص المتواترة في الثقافة الإنسانية على مر العصور، لتبني منها نظاماً لغوياً جديداً، يُراد به الإبلاغ وإقامة التواصل بين منشئ النص ومتلقيه.

أما الناقد الفرنسي رولان بارت فقد توافر على تحديدٍ لمفهوم النص في

مقالين، أحدهما حدد النص فيه من خلال موازنة أقامها بين العمل الأدبي والنص، فجاءت في سبعة فروق ضمّها مقاله (من العمل إلى النص)[٢٣]، أما المقال الثاني فقد جاء بعنوان (نظرية النص)، وقد افتتحه بارت بتعريفٍ للنص كان العرف العام قد درج عليه، فالنص بحسب الفهم العام يعني ((السطح الظاهري للنتاج الأدبي، نسيج الكلمات المنظومة في التأليف، والمنسقة بحيث تفرض شكلاً ثابتاً ووحيداً ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً))[٢٤] ثم علَّق بارت على هذا التعريف بلحاظ نقدي قائلاً ((وعلى الرغم من الخاصية الجزئية والمتواضعة لذلك المفهوم، ليس النص في نهاية الأمر إلاّ جسماً مدركاً بالحاسة البصرية.... وهو مرتبط تشكيلاً بالكتابة (النص المكتوب)؛ ربَّما لأنَّ مجرد رسم الحروف ولو أنَّه يبقى تخطيطاً فهو إيحاء بالكلام وبتشابك النسيج))[٢٥].

بهذا الفهم بدأ بارت التساؤل عن مفهوم النص، فوجد أنَّ الرؤيا العامة للنص لا تتعدى فيه النسيج الخارجي، أي السطح الظاهري الذي تؤلفه الكلمات، بيد أنَّ هذا السطح لا يقود متلقيه إلاّ إلى معنى واحد ثابت، وعلَّة ذلك هي أنَّ النسيج الظاهري مدرك بصرياً؛ لأنَّه نص مكتوب مرتبط بنمط مؤسساتي معين كالقانون والدين والأدب وسواها، وهذه النظرة تجعل من النص دليلاً يضم دالاً ومدلولاً معاً، ومن ثم يكون النص نسقاً منغلقاً على نفسه، لذا جاء مدلوله ثابتاً عند متلقيه بعيداً عن التعدد والاحتمالية الناتجة عن التأويل المستمر الذي يفرضه انفتاح النص على متلقيه.

من هنا أدرك بارت أنَّ هذا التصوُّر هو تصوُّر مؤسساتي كلاسيكي فرضته بعض المناهج النقدية؛ لذا هو بحاجة إلى إعادة النظر من خلال رؤيا جديدة تخطو بالنص نحو ضفة الانفتاح والتعدد الدلالي، فكان السبيل إلى ذلك - بحسب بارت- في انتهاج الرؤيا السيميائية والتخلي عن الرؤيا البنيوية التي غدت كلاسيكية غير مجدية في النظر إلى عناصر النص ومدلولها،

فالسيميائية تنظر إلى النص على أنَّه دال منفتح على دلالات شتى يحددها التأويل المتواصل من لدن جمهور المتلقين.

ولعلَّ الرؤيا التي قدمها بارت هنا هي عينها التي تبلورت عند كريستيفا من قبله؛ لذا نراه يشيد بجهودها المبذولة في هذا المجال، موظفاً المفاهيم التي أسَّستها كريستيفا في دراستها النص، وهي (التحليل الدلالي، والتدليل، والإنتاجية، والنص الظاهر، والكون، والتناص)[٢٦].

أما مفهوم النص عند بارت فقد تجلّى بوضوح في الموازنة التي أقامها بين النص والعمل الأدبي في مقاله (من العمل إلى النص)؛ إذ جاءت تلك الموازنة في سبع نقاط نوجزها بالآتي[٢٧]:

١- إنَّ العمل قضية مادية في المقام الأول، ومن ثم هو يحتل جزءاً من المكان الذي توضع فيه الكتب عادة في المكتبة، أما النص فهو حقل منهجي، أي إنَّه يبرهن على وجوده بمطابقته بعض القواعد أو خرقها وتجاوزها، كما في النصوص الإبداعية.

إذن فالعمل- بحسب بارت- مادة ملموسة، ومن الممكن أن يُحمل باليد، والنص لا تحمله سوى اللغة الموجودة في الأذهان؛ فلا وجود له إلا متضمن في خطاب معين، ومن ثم هو لا يتحقق إلا من خلال الإنتاجية العقلية المتواصلة، وخلاصة ذلك أنَّ النص ليس له أن يستقر على رفوف المكتبة كما هي الحال مع العمل الذي أصبح له كينونة مادية محددة، بل يتجاوز النص كينونته المادية لنلمسه في نصوص أُخَرَ مثلاً، وهذا ما اصطلحت عليه كريستيفا بالتناص.

٢- لا يقوم مفهوم النص على ما يُعرَف بالأدب الرفيع، وليس له أن يكون متضمناً في تسلسل معين أو في أجناس أدبية خاصة، بل إنَّ مفهوم النص قائم على خرق التصنيفات القديمة وتجاوزها إلى العصور جميعاً.

٣- يتحقق النص في العلامة (الدال)، في حين يتعلق العمل بالمدلول، ولا يعني هذا أنَّ الدال هنا مادي محدود، بل هو الأساس في بناء العملية الدلالية؛ لذا نراه يُدرك إدراكاً متفاوتاً من مُتلقٍ إلى آخر بحسب عمليات التفكيك والتأويل التي تجرى عليه؛ لإعادة بنائه من جديد.

٤- ينماز النص من العمل بأنَّه متعدد، والتعددية فيه ليست في معانيه فحسب، بل في تجاوزه حدود المعاني المتعددة إلى عوالمَ أُخَرَ، لا تخضع في سيرورتها إلى تفسير آيديولوجي معين، وإن كان منتمياً إلى مؤسسة ما، لأنَّه حينئذ سيكون مُتنازَع الهوية من حيث انتماؤه إلى هذا الاتجاه أو ذاك، أما العمل فهو ذو ملامح محددة، سواء من حيث مدلوله الكلي، أم من حيث النوع الذي ينتمي إليه، أو من حيث الاتجاه الآيديولوجي الذي ينحو فيه.

٥- ينتسب العمل إلى جنس أدبي معين، والى حقبة تأريخية محددة، وكذلك يُنسب إلى مؤلفه الذي يمثل أباً لعمله ومالكاً له بحسب بارت، أما النص فهو نتاج يُقرأ في كل عصر بمعزل عن منتجه، وهذا ما اصطلح عليه بارت بـ (موت المؤلِّف)[٢٨].

٦- يكون العمل عادة مادة للاستهلاك من قبل المتلقين، أما النص فهو الأفق الذي يسعى إليه الجميع باستمرار، ولا يكون خاضعاً للاستهلاك؛ بل هو يعمل على تقليص المسافة الفارقة بين القراءة والكتابة، من خلال ربط العمل والقارئ في ممارسة دلالية واحدة قوامها النص الذي يمثل مركزية حاكمة ومنظمة لعملية الإنتاج والاستقبال في آنٍ معاً، إذن القراءة التي تُعنى بالاستهلاك ليس ميدانها النص؛ لأنَّه غير قابل للاستهلاك والانتهاء عند حد معين، فهو ذو طبيعة متوالدة بتعدد قراءاته وتنوعها، أي إنَّ القارئ لا يستهلك النص بقدر ما يعيد إنتاجه

في رؤيا جديدة تعمل على اتساع فضائه كلما اتسعت رؤيته، ويضيق كلما ضاقت، بيد أنَّه في النهاية غير قابل للاستهلاك والانتهاء عند حد معين كما هي الحال مع العمل الذي يبدأ من حد معين، وينتهي عند حد معين أيضاً.

٧- يؤسس بارت الفرق الأخير على الرؤيا التي ساقها في النقطة السابقة، فهو يرى أنَّ لكل من العمل والنص لذةً تحصل عند القارئ، غير أنَّ لذة العمل تكون استهلاكية غير منتجة في الغالب، أما النص فهو مرتبط بلذة المتعة المستحصلة من العلاقات اللغوية، بوصفها دالاً تكمن لذته في إعادة إنتاجه المتواصل من قبل القرّاء؛ بحثاً عن دلالته، وفي هذا تكمن اللَّذة النصية.

إذن مفهوم النص عند بارت يكمن في انفتاحه الدلالي القائم على مبدأ الاستمرار، فضلاً عن عدم اقتصاره على جنس أدبي معين، أو ارتباط فاعليته بزمن محدد، وليس لمنشئ النص الوصاية الدائمة على نصه، أو أن يُعطى صفةً مركزيةً في تلقي النص، كما في المناهج النقدية السياقية التي تُعنى بمؤلف النص؛ بل إنَّ النص وليد القراءة وليس المنشئ، وهذا يعني أنَّ النص قيمة متجددة كلَّما كثر قراؤه وتنوعوا في ثقافاتهم، ومن ثم هو غير قابل- من جهة فاعليته- للاستهلاك والنفاد عند حد معين، بل هو قيمة متجددة على الدوام، وقد علل بارت هذا التجدد وعدم النفاد باللذة التي يحصل عليها القارئ في أثناء قراءة النص، فهي لذة تحمله على إعادة إنتاجه على الدوام، بحثاً عن دلالات جديدة.

وعلى صعيد النقد الروائي ثمة مجموعة من الدارسين حاولوا إعطاء النص مفهوماً محدداً من خلال التمييز بين نص الرواية ومكوناتها الأخَرَ متمثلة بـ (الخطاب، والسرد، والحكي)، فقالوا إنَّ من سمات النص أن يتحقق في

الوجود بصورة مادية تبدو متجسِّدة بالكتابة، فالنص- من منظورهم- يمثل ما نقرأه من بنية لغوية مكتوبة على الورق، والى جانب قولهم بالبعد الكتابي ثمة جانب آخر ركَّزوا عليه في نظرتهم للنص ذلك هو (البعد الوظيفي) الذي يتجلى في ارتباط النص من جهة متلقيه بالسياق الخارجي عن طريق ما يُعرَف بفعّالية القراءة وما تحدثه عند القارئ من تداعيات، ويدخل في هذا السياق ما عُرِف عند كريستيفا بمصطلح (التناص) أو (المستويات القيميَّة للظاهرة الأسلوبية)[٢٩].

ويُعد الناقد الروسي يوري لوتمان أحد أهم النقاد الذين نظروا إلى النص من ناحية بنيوية، إذ أسس له تعريفاً يقوم على ثلاثة مفاهيم هي:[٣٠]

١- **التعبير:** ويُراد به إنَّ النص عبارة عن شبكة من العناصر اللغوية المتعالقة مع بعضها بعضاً في نطاق محدد ومجسَّد بشكل مادي.

٢- **التحديد:** وأراد به أنَّ النص وحدة دلالية غير قابلة للتجزيء؛ لأنَّه تعبير عن ثقافة محددة؛ لذا يأخذ على عاتقه نقل دلالتها بصورة كاملة غير مُجزَّأة.

٣- **الخاصية البنيوية:** وهي ما يؤكد أنَّ النص بنية تخضع للتنظيم الداخلي (الذاتي) الذي ينتج عنه نص متراكب أفقياً متسلسل عمودياً، أي إنَّ النص لا يمثِّل مجرد متوالية من العلاقات الواقعة بين حدين فاصلين، بل هو وحدة بنيوية تتفاعل عناصرها فيما بينها، وتُنظِّم حركتها بنفسها.

يبدو أنَّ الأسس البنيوية الثلاثة حاضرة في هذا التعريف، وهي (العلاقات الداخلية، والكلية، والتنظيم الذاتي)، فهذه الأسس تمثِّل المعايير التي قام عليها النقد البنيوي للنصوص الأدبية كما مر بنا في التمهيد، ومن ثم هي خاصة بالنقد البنيوي، وهذا ما يجعل تحديد لوتمان للنص مقصوراً على النظرة

البنيوية ولا يتعداها إلى غيرها، بيد أنَّه قصور مقصود؛ لأنَّ البنيويين يرون أنَّ منهجهم هو الأمثل في نقد النصوص وتحديد فحواها ومقاصدها.

نلحظ مما تقدَّم أنَّ الدراسات النقدية الحديثة سعت جاهدة إلى إعطاء النص هوية مركزية في عملية التواصل المستمر بين النتاج الإبداعي ومتلقيه المتجدد على مر العصور؛ وهي سمات كامنة في مبناه اللغوي ومضمونه المتنوع، من شأنها أن تنأى به عن قيود الإسقاطات الانطباعية المتولدة عن الفهم المؤسساتي لحدوده الدالة، لتنحو به الى فضاء الرؤى المتجددة مع الأجيال، وهذا الملحظ ينطبق الى حدٍ كبير على القرآن؛ بوصفه بنية لغوية مفتوحة الدلالات والمفاهيم على شتى أصناف المتلقين.

ب- مفهوم (النص) في الدرس اللغوي الحديث:

لقد سعت الدراسات اللغوية الحديثة سعياً دؤوباً لكي تضع مفهوماً للنص يكون جامعاً مانعاً، فكان شأنه في ذلك شأن (الجملة) التي اختلف الدارسون في وضع تعريف موحَّد لها، فلم يكن النص أوفر حظاً منها، ولاسيما أنَّه مصطلح بات قريناً للجملة في نظر بعض الدارسين، ومن ثمَّ لم يظهر على الساحة اللغوية تعريف للنص مُتَّفَق عليه عند جمهور الدارسين المتخصصين في مجال علم لغة النص[٣١]، وعلى الرغم من وجود هذا الاختلاف فإنَّ المدارس والاتجاهات اللغوية اللاتي عُنيت بتعريف النص ودراسته تسالمت على ضرورة توافر النص على سمتين متلازمتين فيه لا تنفكّان عنه، وهاتان السمتان هما (الترابط والانسجام)، بيد أنَّها اختلفت في تحديد الأسس المفضية إلى ذلك الترابط والانسجام، فجاءت متنوعةً من تعريف لآخر، ومن متابعة الباحث لتلك التعريفات اتضح أنَّها تسير في اتجاهين رئيسين:[٣٢]

١- اتجاه يُعنى بسمات الوحدة النصية من خلال تركيزه على طبيعة الترابط النحوي الكائن في بنية النص.

٢- اتجاه يُعنى بالجانبين الدلالي والتداولي في النص، من خلال تركيزه على طبيعة الوظيفة التواصلية الكائنة فيه.

أما الاتجاه الأول فيمثله اللغوي الألماني[٣٣] كلاوس برينكر الذي يرى أنَّ النص عبارة عن مجموعة من الجمل تكون متوالية ومترابطة مع بعضها بعضاً، تؤدي وظيفة تواصلية مدركة في سياق معين[٣٤]، وعلى الرغم من إشارة برينكر إلى الوظيفة التواصلية المنضوية في النص، فقد بنى تلك الوظيفة على أساس نحوي، ما جعل اللغوي الانكليزي جون لوينز يرفض أن يكون مفهوم النص محدداً بتتابع الجمل؛ معللاً ذلك بأنَّ هذه السمة تقتصر على شكل النص النحوي فحسب، ولا تنظر إلى مضمونه وطبيعة الترابط والانسجام الكائنين في جزئياته[٣٥].

ومن ناحية أخرى علَّق اللغوي الألماني (برند شبلنر) على التعريف الذي ساقه برينكر للنص واصفاً إيّاه بأنَّه دائري؛ لأنَّه قائم على توضيح مفهوم النص من خلال مفهوم الجملة، وهذا يعني أنَّ برينكر ينظر إلى الجملة على أنَّها تمثل الوحدة الأساسية في بناء النص، وباجتماع مجموعة من الجمل المترابطة في حيز واحد يتكوَّن النص، وهذا التوجُّه جعل التعريف متَّسماً بالدائرية؛ لأنَّه ينطلق من الجملة ويعود إليها؛ وبسبب ذلك رفض شبلنر تعريف برينكر؛ فهو من منظوره ((غير منهجي من الناحية العملية؛ لغموض المصطلح والعلاقات التي يتضمنها، واتساع الوصف، ومن ثم ينتهي إلى نتيجة، وهي إنَّه لا يمكن تطبيقه))[٣٦]؛ لأنَّه لا يفسِّر حقيقة النص ألبتة.

يبدو مما تقدم أنَّ برينكر ينظر إلى الجملة على أنَّها قرين النص في الدرس اللغوي، وحينما أراد أن يضع تحديداً للنص اتخذ من الجملة وسيلة لذلك، من خلال بيان الفارق بينها وبين النص، فهي- كما ذكرنا- تمثل في منظوره الجزء الرئيس في النص، وهذا يجعل النص لا يتعدى أن يكون مجموعة من الجمل

المترابطة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لا ندري ماذا أراد برينكر بمصطلح (الترابط)، أهو مقتصر على الترابط النحوي (الشكل) أم يتعداه إلى الجانب الدلالي (المضمون)؟، وهذا التساؤل أسبغ على التعريف شيئا من الغموض، فجعله عائماً في مدلوله على المراد، ولهذا رفضه الدارسون فيما نحسب.

وقد سلك بعض الدارسين العرب هذا الاتجاه في تعريف النص، وبدا ذلك واضحاً عند الأزهر الزنّاد الذي عرَّف النص بأنَّه ((نسيج من الكلمات يترابط بعضها ببعض، هذه الخيوط تجمع عناصره المختلفة والمتباعدة في كَلٍّ واحد هو ما نطلق عليه مصطلح النص))[٣٧]، يبدو أنَّ الزنّاد انطلق في تعريفه النص من التراث اللاتيني الدال على النسيج؛ إذ هيمن هذا المنظور على مفهوم النص عنده حتى غدا معلماً دالاً في عنوان كتابه (نسيج النص)، بيد أنَّه خالف (برينكر) في الأساس الذي ينهض عليه ترابط النص؛ إذ إنَّ الكلمة هي الأساس الذي ينطلق منه الترابط النصي في منظور الزناد وليس الجملة كما هي الحال عند برينكر؛ فالنص يُبنى من خلال تداخل الألفاظ مع بعضها بعضاً في شبكة من العلاقات تجعل من النص كلاً واحداً، ولم يوضح الزنّاد طبيعة تلك العلاقات أهي نحوية بنائية أم معنوية مضمونية أو كلتاهما معاً؟.

ومن الذين سلكوا هذا الاتجاه في فهم النص الدكتور طه عبد الرحمن؛ إذ يرى أنَّ النص ((عبارة عن مُتوالية من الجمل المترابطة فيما بينها ترابطاً محدداً بكيفية أو بأخرى، بحيث يتكون كل نص من مجموعتين اثنتين: مجموعة الجمل ومجموعة العلاقات القائمة بين هذه الجمل، وبحيث تختلف طبيعة النص باختلاف هذه العلاقات التي تربط بين الجمل))[٣٨]، إذن النص بحسب هذا التعريف ليس سوى جمل تربطها ببعضها بعضاً علاقات، وكلَّما تغيَّرت العلاقات اختلفت طبيعة النص، وهذه الرؤيا تصدق على كل كلام يُطلق عليه نصاً من منظور الدكتور عبد الرحمن، غير أنَّ مفهوم العلاقات هنا عائم وغير محدد.

أما الاتجاه الثاني فيمثله مجموعة من الدارسين يأتي في مقدمتهم اللغوي الألماني (هارتمان) الذي يرى ((أنَّ اللغة المستعملة في الواقع هي الموضوع الفعلي، العلامة الفعلية (أي اللغوية) المنظمة، وهذه العلامة- في العادة- هي النص))[٣٩]، وتأسيساً على هذا الفهم عرَّف هارتمان النص بأنَّه ((أيُّ قطعة ذات دلالة وذات وظيفة، ومن ثم هي قطعة مثمرة من الكلام))[٤٠]، ثم عاد وعرَّف النص تعريفاً آخر ينص على أنَّه عبارة عن ((علامة لغوية أصلية، تبرز الجانب الاتصالي والسيميائي))[٤١]، نفهم من هذين التعريفين أنَّ هارتمان لا يشترط في مفهوم النص سوى أن يكون ذا طبيعة دالة وَصَفَها بالسيميائية، ووظيفة اتصالية بين جمهور المتخاطبين، تجعلانه عنصراً مثمراً في سلسلة الكلام، ويبدو أنَّ النظرة اللغوية العامة طاغية على هذا التعريف؛ ذلك بأنَّ النص مفهوم من شروطه الطبيعية الملازِمة له أن يكون ذا دلالة ووظيفة اتصالية، وبخلاف ذلك يخرج من نطاق النصية ويغدو شططاً من القول.

أما اللغوي الهولندي (فان دايك)، فهو أحد مؤسسي علم لغة النص، وقد سلك الاتجاه الثاني أيضاً في تحديد مفهوم النص وإيضاح معالم النصية فيه، من خلال الربط بين جانبيه الدلالي والتداولي؛ إذ بدأت محاولاته تلك منذ بداية السبعينيات من القرن العشرين، بيد أنَّ الأمر تجلّى على أتمِّ وجه في كتابه (النص والسياق- استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي) الصادر سنة ١٩٧٧م، فقد سعى في كتابه هذا إلى تأسيس نحو للنص مقابل نحو الجملة الذي عكفت الدراسات اللغوية السابقة عليه، وكان سبيله إلى ذلك هو توظيفه الأبعاد البنيوية والسياقية كافة، ومن ثم إقامة نحو النص على أساس بنائي ودلالي وتداولي في آنٍ معاً.

انطلق دايك إلى بلورة مفهوم النص من ملحظٍ مفاده أنَّ الوصف اللغوي للنص عادة ما ينظر إلى جُمَلِهِ مُنفردةً عن بعضها، أي كل جملة على حدة،

وفي أحسن الأحوال كان يُنظر إلى مُتوالية من الجمل على أنَّها مركب جملي، بيد أنَّ دايك لحظ أنَّ هناك فرقاً بين الجملة المركبة والجمل المتوالية من الناحية الدلالية والتداولية؛ ذلك بأنَّ معنى الجمل يمكن أن يرتبط بمعنى جمل أُخَرَ من النص نفسه، وهذا الملحظ حمل دايك على إعادة بناء تلك الملفوظات أو المجموعات الجملية في وحدة واحدة هي (النص) Text.

وتأسيسا على هذه الرؤيا أصبح مفهوم النص عند دايك هو البناء النظري الذي يُطلق عليه مصطلح (الخطاب)، وهذا الخطاب هو الذي يمنح البنية اللغوية النصية شرعيتها عند المتلقي، ويجعلها قابلة للتأويل[٤٢]، وهذا يعني أنَّ مفهوم النص عنده عبارة عن وحدة بنيوية لا تتحقق سمة النصية فيها إلا من خلال الخطاب؛ بوصف الأخير فعلاً تواصلياً بين مُنشئ النص ومُتلقيه، ومن هذا الباب يتم ربط النص بسياقاته التداولية، فيتجلّى في نمط خطابي معين[٤٣].

أما هاليداي ورقية حسن فهما القطب الآخر المؤسِّس لعلم لغة النص إلى جانب فان دايك، وقد مثَّلا الاتجاه الثاني أيضاً؛ إذ اتخذ مفهوم النص منحى آخرَ عندهما يغاير مفهوم الجملة، فإذا كانت الجملة تمثل وحدة أساسية في الدرس اللغوي، فالنص يختلف عنها في أنَّه ليس بنية نحوية أكبر حجماً من الجملة، أو أنَّه مجرد سلسلة من الجمل أو جملة كبرى؛ بل هو بنية مختلفة من حيث دلالتها في السياق الذي يقتضيها، فهو وحدة دلالية كُلِّيَّة في المقام الأول[٤٤]، ولاشك في أنَّ هذا التعريف يعطي للمنحيين الدلالي والتداولي الصدارة في فهم النص وبنائه وتلقيه.

ويُعد اللغوي الأمريكي (روبرت دي بوجراند) أحد الأقطاب المؤسِّسة لعلم لغة النص في أمريكا، وقد سلك هو الآخر الاتجاه الثاني في تعريف النص محاولاً تقديم مفهوم يكون جامعاً لعدة جوانب، فكان سبيله إلى ذلك مفهوم (الجملة) التي اتخذها قريناً للنص؛ لذا عقد موازنة بينها وبين النص من أجل

بيان الفرق بينهما، ومن ثم الخروج من تلك الموازنة بتحديد دقيق لمفهوم النص، وقد تمثلت تلك الموازنة في مجموعة من الفروق، نوجزها بالآتي(٤٥):

١- النص هو كيان لغوي متعدد المستويات، ويضم مجموعة من الأجزاء Fragments، وهذه الأجزاء يمكن لها أو لا يمكن أن تركَّب في صورة جمل.

٢- يُعد النص نظاماً دينامياً فعّالاً Actual System، أما الجمل فتُعد جزءاً من نظام افتراضي ثابت Virtual System.

٣- يُستدل على النص من خلال مجموعة من المعايير التي تحقق له سمة النصية Textuality، أما الجملة فهي كيان لا يتجاوز كونه قواعدياً خالصاً Grammatical، يتحدد على مستوى النحو فحسب.

٤- إنَّ تجريد الجمل المنضوية في نص معين بغاية دراستها في قواعد نحوية لا يسهم في بيان دلالتها في سياق الموقف Context Situational إلا بصورة بسيطة لا تسعف المتلقي في بيان الوظيفة التواصلية لتلك الجمل في سياق معين.

٥- إنَّ اعتماد القياس القواعدي النحوي في تحديد الجمل وضبط أنواعها أمر لا ينطبق على تحديد النصوص؛ فالتمييز بين ما يُعد نصاً Text وما لا يعد نصاً Non Text أمر لا يتم بمثل هذا القياس؛ لأنَّ النص بنية خاضعة لمجموعة من المعايير الاجتماعية والثقافية والنفسية، ومن ثم هو بناء معقد لا يمكن أن ينطبق عليه ما ينطبق على الجمل مهما كانت معقدة.

٦- ينبغي للنص أن يكون مرتبطاً بموقف معين Context Situational تتفاعل فيه مجموعة من الاستراتيجيات Strategies، والتوقعات

Expectations، والمعارف Knowledges، فهذه مجتمعة تُعد أساساً في تحقيق مفهوم النصية، أما الجملة فلا يُشترط توافر تلك القضايا فيها.

٧- ليس النص مجرد بنية صرفية متراصفة Sequential Morphem؛ بل هو عبارة عن عمل مقصود يراد به إقامة علاقات بين جمهور المتخاطبين، يكون الهدف منها البناء والتوجيه، أما الجملة فهي وحدة صرفية ذات أثر محدود في المواقف الإنسانية؛ لأنَّها تُعتمَد لمعرفة بناء العلاقات النحوية بين الكلمات في المقام الأول.

٨- النص عبارة عن مجموعة من الحالات المتوالية لمُنشئ النص ومُتلقيه، منها حالات ثقافية ومنها اجتماعية، ومنها نفسية انفعالية، وهذه الحالات تكون عرضة للتغير من نص إلى آخر عند منشئ واحد، أو مجموعة من المنشئين، وكذا هي الحال لمتلقي النص، أما الجمل فهي عناصر تنتمي إلى نظام ثابت متزامن Synchronic System، أي نظام يُرى في حال واحدة مفارقة للتطور.

٩- تنطبق الأعراف الاجتماعية Social Conventions على النصوص أكثر مما تنطبق على الجمل، ومن زاوية أخرى نجد أنَّ العوامل النفسية Psychological Factors أوثق صلة بالنصوص منها بالجمل.

١٠- تشير النصوص إلى نصوص سواها بطريقة تختلف عن اقتضاء الجمل لغيرها، وهو ما عُرف

عند كريستيفا بالتناص Intertextualite أي تداخل النصوص وإشارة بعضها إلى بعضها الآخر.

لعلنا بعد هذا العرض الموجز نلمس من الفروق الواردة فيه أنَّ النص كيان لغوي مُغاير للجملة من وجوه عديدة، فهو ليس مجموعة من الكلمات المتراصفة

جنباً إلى جنب في بنية لغوية، وتكون خاضعة لعلاقات محدودة مثلما هي الحال في الجملة التي قد لا تتجاوز علاقاتها إلى سواها؛ بل هو عالم من العلاقات الكائنة بين البنية اللغوية وسياقاتها المنتجة لها والمحيطة بها؛ ومن أجل ذلك لا يمكن للجملة أن تكون مرادفاً للنص، وليس لها أن تكون على النقيض منه؛ لأنَّ لكل منهما كيانه المتجلّي في نظام خاص يخضع في سيرورته لجملة من المعايير لا يمكنها أن تلتقي إلا على سبيل الاشتراك في الكينونة اللغوية البنيوية.

وعلى الصعيد نفسه بدا الجانب التداولي القائم على الوظيفة التواصلية للنص واضحاً على أتمِّ وجه في تعريف اللغوي الفرنسي جان ماري سشايفر؛ إذ عرَّف النص بقوله ((وبالاتفاق المنتشر في التداولية النصِّية، فإنَّنا سنحدد النص هنا بوصفه سلسلة لسانية محكية أو مكتوبة وتشكل وحدة تواصلية، ولا يهم أن يكون المقصود هو مُتوالية من الجمل، أو من جملة وحيدة، أو من جزء من الجملة))[٤٦]، وكما هو بين أنَّ ماري سشايفر لا يعتد بالجانب النحوي أو الكم البنائي في تحديد مفهوم النص، بل يعتقد أنَّ ما يؤديه النص من وظيفة تواصلية هو المعيار في تحديد مفهوم النصِّية فيه.

وفي السياق التداولي نفسه ذهب اللغوي الألماني شميت إلى تعريف النص بأنَّه ((جزء حُدِّدَ موضوعياً (محورياً) من خلال حدث اتصالي ذي وظيفة اتصالية (إنجازية)))[٤٧]، يبدو من التعريف أنَّ مفهوم النص عند شميت مرتبط ارتباطاً شديداً بالوظيفة التواصلية التي يُراد منها إقامة جسر من العلاقات التداولية بين مُنشئ النص ومُتلقيه؛ سعياً إلى انجاز أمر لا يتم انجازه إلا بالتواصل مع المتلقي.

وعلى صعيد الدرس العربي انتهج بعض الدارسين الاتجاه الثاني وكان منهم الدكتور سعيد يقطين الذي رأى أنَّ النص ((ليس وحدة نحوية مثل الجملة مثلاً، أو شبه الجملة، كما أنَّ معيار الكم ليس ضرورياً؛ إذ قد يكون

كلمة أو جملة أو عملاً أدبياً، وبتعبير أعمق وأوضح، النص (وحدة دلالية) وهذه الوحدة ليست وحدة شكل؛ بل وحدة معنى))[٤٨]؛ واستناداً الى رؤيته تلك عرَّف النص بأنَّه ((بنية دلالية تنتجها ذات ضمن بنية نصِّية مُنتَجَة في إطار بنية سوسيونصِّية))[٤٩]، من الواضح أنَّ هذا التعريف بُني على منطق ينظر إلى البناء النصي على أنَّه عملية يشترك في تكوينها وبنائها منشئ النص ومتلقوه الذين يشاركونه الجانب السوسيونصي؛ إذ أفصح الدكتور يقطين عن ذلك في التسلسل الذي ساقه لعملية بناء النص وتدرُّجه في ثلاثة مستويات، أولها المستوى الدلالي، أي المعنى المتمخض عن الذات المنتجة في مستوى تالٍ يكون ذا طابع فيزيقي مرئي أو مسموع سماه الدكتور يقطين (البنية النصية)، أما المستوى الثالث فهو المنحى الاجتماعي الذي يُعد أساساً من أسس النصية السليمة؛ إذ لا يكتسب الكلام سمة النصية إلا إذا كان ثمة من يتلقاه ويفهمه، سواء على المستوى الفردي أم الجماعي.

لقد حاول الدكتور سعيد حسن بحيري توظيف معظم وجهات النظر الواردة في الاتجاهين الرئيسين في ميدان علم لغة النص، والخروج منها بتعريف يكون جامعاً لها، فعرَّف النص بأنَّه ((وحدة مترابطة تركيبية، متماسكة دلالية، ذات وظيفة اتصالية محددة، وحدة ذات بنية معقدة))[٥٠]، ولعل هذا التعريف فيه من سمات الشمولية ما يجعله جامعاً لبعض النواحي التي تبدو فيها معالم النصية واضحة، كالترابط البنائي، والتماسك الدلالي، والوظيفة الاتصالية بين المتخاطبين، فضلاً عن ذلك إنَّه سلَّطَ الضوء على جانب مهم من البنية النصية، وهو جانب التعقيد الذي يشمل القضايا السابقة جميعاً، فهو نتاج الترابط التركيبي والتماسك الدلالي والمنحى التداولي أيضاً، ومن ثم هو بنية معقدة تختلف عن التعقيد في الجملة من جوانب عديدة سبق لنا أن وقفنا عليها عند الدارسين.

نخلص مما تقدم إلى القول بأنَّ التنوع الذي شهده الدرس الحديث في نظرته

إلى النص عمل على تشتيت مفهومه بين النقاد واللغويين من جهة، وبين اللغويين أنفسهم من جهة أخرى؛ إذ سار في اتجاهين رئيسين كما تقدم، ولم يقتصر على ذلك، بل تجاوز إلى مناحٍ شتى تجلت في كل اتجاه منهما، غير أنَّنا في هذا البحث نسعى إلى لملمة الشتات المتمخض عن تنوع الاتجاهات وتشعبها، من خلال رصد نقاط الالتقاء بينها بالآتي:

١- يكاد يجمع الدارسون نقاداً ولغويين على ضرورة توافر الوظيفة التواصلية في النص، كيما يستقيم له مفهوم النصِّية.

٢- توافر النص على جانبين من التعالق بين أجزائه، أحدهما نحوي، وهو ما أطلقوا عليه مصطلح (التماسك أو الترابط)، والآخر دلالي، وهو ما اصطلحوا عليه بمصطلح (الانسجام).

٣- يقتضي كل نص أن يقوم على طرفين، أحدهما منشئ للنص، والآخر متلقٍ له، سواء أكان متلقي النص ظاهراً أم مضمراً في لاشعور المنشئ.

٤- ينماز النص عند معظم الدارسين بأنَّه بنية ذات طابع خاص يختلف عن الجملة من نواحٍ عديدة، تجسَّدت بشكل واضح وصريح عند دي بوجراند.

٥- حضور الجوانب السياقية في بناء النص وتلقيه عند معظم الدارسين، ولاسيما السياق الاجتماعي العام، وسياق الموقف.

المبحث الثاني

مفهوم (الخطاب) في التراث والدرس الحديث

١ـ مفهوم (الخطاب) في التراث:

ذهب بعض الدارسين إلى أنَّ مفهوم الخطاب في التراث الغربي يعود بجذوره إلى مفهوم اللوغوس Logos[٥١] الإغريقي الذي قال به أرسطوطاليس

ومن قبله أفلاطون[٥٢]، فالخطاب بحسب أرسطو يعني ((ترتيب وتفصل لوحدة جدلية مستمرة وقابلة للعزل في الآن نفسه، وهذا التعريف يحدد جانبين أساسيين ومؤسِّسين لشروط وجود الخطاب يتمثلان في التلاحم Coherence وتفصل الأجزاء))[٥٣]، ومن جانب آخر نجد ثمة رابطاً بين كلمة (خطاب/ Discourse) والأصل اللاتيني Discursus الذي يعني (جرى هنا وهناك)، فهذا الأخير مُشتق من اللفظ اللاتيني Discurrere الذي يعني (الجري)، وإذا ما وظَّفنا المعاني المستحصلة لدينا من الجذور اللاتينية لكلمة (خطاب) فإنَّا نستطيع القول إنَّ الخطاب يتحقق في جري الكلام من المنشئ إلى السامع أو القارئ أو إلى مجموعة من المتلقين[٥٤]، أما تأريخ استعمال كلمة Discourse في الثقافة الأوروبية، فقد أرجعها بعض الدارسين إلى سنة ١٥٣٤م، وعاد بها بعضهم الآخر إلى تأريخ أسبق من هذا؛ إذ حدده بسنة ١٥٠٣م، وذكروا أنَّها كانت تُستعمل في بداية تداولها بمعنى: محكي أو عرض، سواء أكان منطوقاً أم مكتوباً، ثم تشعَّب استعمالها بعد ذلك ليشمل دلالات عديدة منها: إنَّها تُستعمل بمعنى حوار أو محادثة، وتُستعمل بمعنى خطبة شفوية تُلقى على جمع من الناس، واستُعمِلت بمعنى كتابة أدبية تعالج موضوعاً ما بطريقة أدبية، وأطلقت على التعبير الشفوي عن الفكر، وأطلقت كذلك على الكلام، سواء أكان جملة أم متوالية من الجمل المنطوقة أو نصاً طويلاً مكتوباً[٥٥].

أما في التراث العربي فقد استُعمِلت كلمة (خطاب) في سياقات كثيرة حملت فيها معانيَ متنوعة، جمعها أصحاب المعجمات العربية تحت الجذر (خطب)، فاستوت عندهم دالة على جملة من المعاني، منها (الخطب)، وهو الأمر العظيم الجلل، ويُجمع خُطُوب، ومنها (خِطبة المرأة) بكسر الخاء، أي التقدم إلى وليِّها بطلب الزواج منها، ومنها (الخُطبة) بضم الخاء، وهي الكلام المنثور الذي يُلقى على جمع من الناس، ومنها الخطاب الذي يعني مراجعة

الكلام بين شخصين أو أكثر ومثله المخاطبة، ومن معانيه الأُخَرَ التوجُّه نحو الآخر بالكلام ومواجهته، ومنه قولهم: اختطب القوم فلاناً، إذا توجهوا إليه بخطاب يحثونه على الزواج بصاحبتهم، وقد وردت لفظة (خطاب) ومشتقاتها في مواضع من الذكر الحكيم، ومنها قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[٥٦] والمراد بفصل الخطاب الحكم بالبيِّنة أو باليمين[٥٧].

نخلص مما تقدم إلى القول بأنَّ مفهوم الخطاب في التراث المعجمي العربي بُني على أساسين هما: توجيه الكلام مباشرةً أو بطريقة غير مباشرة نحو الآخرين؛ بقصد إشراكهم في الخطاب (المخاطبة)، أو إخبارهم بأمر ما، وهذا يعني أنَّ التواصل هو الغاية الأولى من توجيه الخطاب، أما الأساس الثاني فهو النظام المتحكم في توجيه الخطاب بما في ذلك السياق الاجتماعي الموجب لإيراد الخطاب بصورة دون أخرى، وقد بدا ذلك واضحاً في (الخُطبة، والخِطبة) اللتين تقتضيان سياقاً اجتماعياً، وموقفاً مناسباً لإلقائهما.

ويبدو أنَّ هذين الأساسين يكشفان عن نضج مبكر لمفهوم الخطاب في الثقافة العربية من الممكن أن يُنظَر إليه على أنَّه نواة لما درجت عليه الدراسات الحديثة في فهمها مصطلح الخطاب، على الرغم من تنوعه واختلافه من دارس لآخر، أو من اتجاه لآخر؛ فليس هناك خطاب يفتقر إلى أحد هذين الأساسين، وإلاّ فَقَدَ سمة الخطابية.

ولعلنا بعد ذلك لا نلمس وجود صلة مباشرة بين مفهوم الخطاب في التراث الغربي ومفهومه في التراث العربي إلاّ عن طريق التأويل، وتتضح هذه الصلة في معنى (الجري من مكان إلى آخر) الذي تأوَّلناه في التراث الغربي على أنَّه يصدق مجازاً على انتقال الكلام من شخص إلى آخر، فهذا الانتقال بمثابة الجري من موضع إلى آخر، ولا نعدم وجود هذه الدلالة للفظ (الخطاب) في

التراث العربي، فالخطاب كلام موجَّه من شخص إلى آخر، وهو بهذا الوجه يلتقي مع مفهوم الخطاب في التراث الغربي، وإذا كان ثمة تعليل لهذا الالتقاء، فإنَّنا نعزوه إلى تماثل بعض المفاهيم في التراث العالمي، وهو تماثل ناتج عن التقاء التفكير البشري في النظر إلى بعض الأمور التي تُعد مشتركة بين أفراده، بوصفها أساساً من أسس قيام المجتمع وبنائه، ويحسب الباحث أنَّ الخطاب واحد من تلك الأمور المشتركة بين المجتمعات البشرية عموماً.

أما في التراث اللغوي والنقدي العربي، فإنَّ الخطاب لم يحظَ بفهم ينأى به عن دلالاته المعجمية، ومن أجل ذلك جاء ملازماً لتلك الدلالات في السياقات التي استُعمِل فيها عند اللغويين والنقاد، وقد يكون التراث الأصولي هو المجال الذي حظي فيه لفظ (الخطاب) ومشتقاته بكثرة الاستعمال والتداول؛ ذلك بأنَّ ((الخطاب هو الأرضية التي استقامت أعمالهم ﴿أي الأصوليين﴾ عليها؛ بل كان هو محور بحثهم.... ومن أبين الأدلة على ذلك إيرادهم اسم الفاعل (مخاطِب) واسم المفعول (مخاطَب)، بوصفهما طرفي الخطاب))[٥٨]، ولكن على الرغم من كثرة الاستعمال لم يحظَ (الخطاب) عند الأصوليين بفهم يرتقي به إلى مستوى تأسيس المصطلح، حتى في المحاولات التي ظهرت عند بعضهم لتحديد مفهوم الخطاب، على نحو ما ذهب إليه الآمدي (ت٦٣١هـ) في تعريفه الخطاب بأنَّه ((اللفظ المتواضع عليه، المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه))[٥٩]، وعلى الرغم من الإيضاح الذي قدمه الآمدي لهذا التعريف تباعاً[٦٠]، فإنَّنا لا نلمس فيه دلالة جديدة على دلالاته المعجمية، فالخطاب بطبيعته كلام متواضع عليه، كيما يتم فهمه وتداوله بين أطراف الخطاب، وهي دلالة وقفنا عليها في المعجمات اللغوية، ثم أنَّ الإفهام هو غاية طبيعية لمعظم أنواع الخطاب، باستثناء الجدل السوفسطائي الذي يُراد به إدخال المتلقي في متاهات التعبير من أجل الغلبة فحسب[٦١].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد؛ بل استُعمِل لفظ الخطاب عند علماء التفسير وعلوم القرآن؛ إذ ورد في غير موضع من التفسيرات القرآنية والدراسات التي أُثِرت عن المعنيين بالشأن القرآني من القدماء، بيد أنَّه وإن كان يُطلق على آيات القرآن وأجزائه وسوره، فهو لم يتجاوز المعاني المعجمية في استعمال الدارسين[٦٢]، أما في مجال علوم القرآن فقد أحصى الزركشي (أنواع المخاطبات) المنضوية في القرآن، فاستوت عنده أربعين نوعاً، بيد أنَّه لم يحدد مفهومها الاصطلاحي، واكتفى بضرب الأمثلة القرآنية لها، ولم يتجاوز ذلك إلى نطاق التأسيس المصطلحي للخطاب[٦٣].

ومهما يكن الأمر فقد نال لفظ الخطاب في التراث العربي ما ناله لفظ النص من عناية، بيد أنّها عناية بقيت تدور في مجال المعاني المعجمية، ولم ترقَ إلى مستوى الاصطلاح الحديث، شأنه في ذلك شأن النص.

٢ـ مفهوم الخطاب في الدرس الحديث:

شهد النصف الثاني من القرن العشرين ظهور مصطلح الخطاب في الدراسات اللغوية حينما وضع اللغوي الأمريكي زيلغ هاريس[٦٤] دراسة بعنوان (تحليل الخطاب) سنة ١٩٥٢م، وفي هذه الدراسة حاول هاريس أن يقدم مفهوماً للخطاب يراه ممثَّلاً في متوالية من الملفوظات المتعالقة مع بعضها بعضاً[٦٥]، ثم تلاه اللغوي الفرنسي اميل بنفنست، فقدم تعريفاً جديداً للخطاب تجاوز به حد الملفوظات إلى مجال وظيفة التواصل؛ إذ عرَّفه بأنَّه ((الملفوظ منظوراً إليه من وجهة آليات وعمليات اشتغاله في التواصل))[٦٦]، ثم أصبح (تحليل الخطاب) مصطلحاً متداولاً في الدراسات اللغوية والنقدية منذ سبعينيات القرن الماضي، وبدأت مشكلات الخطاب تظهر عند الدارسين في تحديد ماهيته وأنماطه وطبيعته المادية والمجردة، ولدفع الخلاف الحاصل بين الدارسين ظهرت أصوات تدعو إلى إبعاد الخطاب من مجال الدرس اللغوي

والنقدي، وإفراده في علم مستقل يسمى (علم الخطاب)، في حين رفض آخرون هذه الدعوة، لإيمانهم أنَّ الخطاب جزء لا يتجزأ من الدراسات اللغوية والنقدية[٦٧]، وهكذا أضحى الخطاب مصطلحاً أثيراً عند كثير من الدارسين، فتجاذبوه تنظيراً وتطبيقاً، بيد أنَّه اقترن غالباً بمصطلح (تحليل) الذي يعني إعادة المادة إلى عناصرها الأولية المكونة لها، من أجل فهمها فهماً دقيقاً يساعد الباحث في وصفها أو الحكم عليها بطريقة علمية سليمة[٦٨]؛ من هنا ظهر الخلاف بين الدارسين في تحديد معايير تحليل الخطاب، فضلاً عن الجدل الحاصل بينهم في مفهومه، فهو جدل ما يزال مستمراً إلى يومنا هذا، وقد حدا هذا الخلاف بأحد الدارسين إلى البحث عن أسبابه، فردَّها الى تنوع مجالات تحليل الخطاب في الدرس الغربي الحديث، ولإيضاح ذلك عمد الى إحصائها فاستوت عنده ثلاثة اتجاهات هي:[٦٩]

١- الاتجاه الأول يمثله الدارسون الفرنسيون الذين نظروا إلى الخطاب من الزاوية التي نظر منها سوسير إلى اللغة؛ إذ وجهوا عنايتهم نحو الجوانب المتحكمة في خلق الخطاب، بوصفه جزءاً من ظاهرة اجتماعية هي اللغة، فاستندوا في تحليل الخطاب إلى المقاربة البنيوية من ناحية، والتأويل الاجتماعي والسياسي من ناحية أخرى.

٢- الاتجاه الثاني يمثله معتنقو النظرية التوليدية التحويلية التي انبثقت في خمسينيات القرن العشرين على يد اللغوي الأمريكي (نعوم تشومسكي)، وفي هذا الاتجاه يلتقي تحليل الخطاب بتحليل الجملة؛ ذلك بأنَّ الدارسين سعوا إلى إقامة (نحو للخطاب) يوازي (نحو الجملة)، بالاستناد إلى المنطلقات التوليدية التحويلية نفسها التي اعتُمِدت في بناء نحو الجملة.

٣- الاتجاه الثالث يمثله الدرس الانجلو- ساكسوني، ولاسيما مدرسة

برمنكهام، وفي هذا الاتجاه يرتبط تحليل الخطاب بتحليل نمط معين من الحوار هو المخاطبة المؤسسة على التفاعل بين الأستاذ وتلاميذه.

ولعل تنوع الرؤى في هذه الاتجاهات الثلاثة يعلل سبب تعدد دلالات الخطاب وتنوعها في الدرس الغربي الحديث، فهو ناتج عن تنوع الأسس المعرفية لتلك الاتجاهات، ومن ثم اختلاف نظرتها للخطاب، وهذا الأمر حمل نفراً من الدارسين المحدثين على تصنيف المعاني الاصطلاحية التي أسبغها الدارسون على مفهوم الخطاب، فوجدها متمثلة في ثلاثة معانٍ[٧٠]:

١- **المعنى الأول:** معنى عام شائع بين أكبر عدد من الدارسين المنتمين إلى تخصصات متنوعة، فهؤلاء يرون أنَّ الخطاب عبارة عن مجموعة من الجمل تتسم بالانسجام، وتكون منطوقة من شخص معين تجاه جمهور من المتلقين، وتدور في موضوع معين، مثلما هي الحال في الخطاب الذي يُلقى في المناسبات، وهو الذي اصطلحت عليه الأكاديميات الفرنسية بـ(الخطاب الاستقبالي).

٢- **المعنى الثاني:** هو معنى لغوي، ولكنه يتسم بالاختزال، وبحسب هذا المعنى يكون الخطاب عبارة عن جمل متوالية تتجلّى في صورة رسالة أو حكمة أو مقالة وسواها، بيد أنَّ هذه الأنواع الخطابية لابد لها من بداية ينطلق منها الخطاب ونهاية ينتهي عندها، وتنغلق عندها حدوده.

٣- **المعنى الثالث:** هو معنى لغوي أيضا، بيد أنَّه موسَّع يشمل الخطاب ذا البنية المختزلة بشتى أنواعه، ويتجاوزها ليشمل أنواع الخطاب المتبادل بين الجماعات الاجتماعية مهما تباينت تلك الخطابات في جنسها الذي تنتمي إليه، أو موضوعها، أو مبناها ودلالاتها.

أما الدرس العربي الحديث، فقد شهد محاولات كثيرة سعى أصحابها إلى

تقنين مصطلح الخطاب وضبطه، من خلال إعطائه مفهوماً يتناسب وأنماط الخطاب العربي المتوارثة منها والحديثة، إذ يرى الدكتور بسام بركة أنَّ المقصود بالخطاب ((هو كل نص يأتي نتيجة لعمل إرسال لغوي يقوم به مرسل ما، ويكون موجَّها بطريقة حتمية إلى قارئ أو سامع فعلي أو متخيَّل يقوم بعمل التلقي والتفسير))[٧١]، وهذا التعريف ينظر إلى الخطاب لا على أنَّه كيان لغوي من الممكن أن يُطلق عليه تسمية (نص) فحسب؛ بل هو نص مرتبط بوظيفة التواصل؛ أي إنَّ استعمال هذا النص في سياق تواصلي يقتضيه هو الذي يمنحه سمة الخطابية، وقد ذهب هذا المذهب الدكتور محمد يونس حينما عرَّف الخطاب بقوله ((الخطاب هو النص اللغوي بعد استعماله، وهو وسيلة المتخاطبين في توصيل الغرض الإبلاغي من المخاطِب إلى المخاطَب، ويتسم بأنَّه كتلة بنيوية واحدة متماسكة الأجزاء، وأيَّة محاولة لفصل أجزائه بعضها عن بعض تؤدي إلى تغييره وإعادة بنائه))[٧٢]، إذن الاستعمال خصوصية تعبيرية تنضوي على وظيفة التواصل، وهي الأساس الذي أقام عليه الدكتور يونس تعريفه للخطاب ومن قبله الدكتور بسام بركة.

من هذين التعريفين نفهم أنَّ الخطاب اللغوي يضم النص في طياته؛ لأنَّ النص هنا يمثِّل العنصر اللغوي المادي الذي تتجلّى فيه أبعاد الخطاب وتُلتَمس منه مقاصده، فضلاً عن قضايا أُخَرَ يقتضيها السياق التواصلي بين المتخاطبين، مثل الموقف والمناسبة، وطبيعة الموضوع، ومقام كل من طرفي الخطاب للآخر، ومناسبة الخطاب لتلك المقامات؛ لذا فهذه الرؤيا تجعل النص اللغوي وجهاً للخطاب، ومن ثم يكون هو الجزء الأساس الذي تستند إليه عناصر الخطاب الأخَرُ، وبه يتجلّى الخطاب في شكله المادي.

أما الدكتور سعيد حسن بحيري فقد وافق المنطلقات السابقة؛ فجعل النص العنصر الأساس في بلورة الخطاب، فالنص عنده ((وحدة معقدة من الخطاب؛

إذ لا يفهم منه مجرد الكتابة فحسب، وإنما يفهم منه أيضاً عملية إنتاج الخطاب في عمل محدد، فالخطاب يتجمع فيه أولاً عمل تركيبي يجعل من القصيدة أو القصة وحدة شاملة لا يمكن قصرها على مجرد محصلة جمع عدد من الجمل والفقرات، ثم يخضع هذا التركيب لعدد من القواعد الشكلية، أي لعملية تشفير، لا بوصفه لغة، وإنما بوصفه خطاباً يؤدي إلى وجود ما نطلق عليه قصيدة أو قصة أو غيرها))[٧٣].

لم يكتفِ الدارسون العرب بتلك الرؤى؛ بل حاول بعضهم تقديم مفهوم للخطاب يتسم بالشمول، بحيث يصدق على جميع أنواع الخطاب، الدينية منها والسياسية، والأدبية، والاقتصادية، والفلسفية، والتربوية، وسواها، وقد لمسنا ذلك عند الدكتور الزواوي بغورة الذي عقد العزم على نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة؛ ذلك بأنَّ اللغة باتت من أشهر الاتجاهات التي سلكتها الفلسفة المعاصرة، حتى أُطلِق على هذا الاتجاه (فلسفة اللغة)، واستناداً إلى هذا الاتجاه حاول الزواوي بغورة أن يقدم مفهوماً شاملاً للخطاب، فعرَّفه بأنَّه ((المجال العام لكل المنطوقات، ومجموعة متفردة من المنطوقات، أو ممارسة منظمة تتكون من عدد من المنطوقات، أو هو ما تمَّ إنجازه فعلياً، أو أنَّه مجموعة من المنطوقات التي تنتمي إلى نظام واحد من التشكُّل والتكوّن، وهكذا أستطيع الحديث عن الخطاب العبادي، والخطاب الاقتصادي، والخطاب النفسي))[٧٤]، يبدو أنَّ السمة اللغوية هي الطابع المهيمن على هذا التعريف، ولا شك في ذلك؛ فهو يبحث في فلسفة اللغة، والخطاب صورة من صور استعمالها، بيد أنَّه التزم صفة النطق في تحديده مفهوم الخطاب، ولم يتجاوزها إلى الكتابة التي تمثل مظهراً من مظاهر تجلّي الخطاب اللغوي إلى جانب المظهر النطقي المسموع، وقد يكون ألمح إليها في وصفه الخطاب بأنَّه (ما تم إنجازه فعلياً)، فالانجاز صفة تصدق على المنطوق

والمكتوب معاً، وعلى أية حال فقد أغفل التعريف تحديد عناصر الخطاب، وظروف إنتاجه وتلقيه، ومن ثم لم يكن جامعاً لعموم أنواع الخطاب وعناصره كما أراد له الدكتور بغورة.

ومن الباحثين العرب المحدثين من تجاوز الآراء الحديثة في تعريف الخطاب، واستند إلى ما أوثر عن الأصوليين من تعريف له، ولاسيما الآمدي منهم، فعرَّفه بقوله ((حد الخطاب أنَّه كل منطوق به، موجه إلى الغير بغرض إفهامه مقصوداً مخصوصاً))[٧٥]، ثم أشار في الهامش إلى تعريف الآمدي للخطاب، تنبيها منه على التوافق الكائن بين التعريف الذي صاغه وتعريف الآمدي[٧٦]، وقد سبق لنا أن ذكرنا أنَّ الأصوليين لم يتجاوزوا في استعمالهم لفظ الخطاب معناه المعجمي الذي يُراد به توجيه الكلام نحو الآخر بقصد الإفهام، وهذا يعني أنَّ هذا التعريف لم يأتِ بجديد سوى ما نلمسه في كلمة (مخصوصاً) التي ختم بها تعريفه من إشارة إلى خصوصية المقاصد التي يحملها الكلام الذي يصدق عليه وصف الخطاب، وهذا ما يجعل من لفظ الخطاب لا يصدق على أي ملفوظ كان، إلاّ إذا حمل في طياته قصداً خاصاً لا يفهمه إلاّ مُتلقٍ خاص، وهو ما يقتضي ضرورة سياقات خاصة.

وعلى مستوى النقد العربي الحديث نجد ثمة مقاربة بين مصطلحي النص والخطاب أقامها الدكتور سعيد يقطين، في محاولة منه لتقنين العلاقة بينهما، فالنص من منظور الدكتور يقطين يقوم بوظيفة توسيع الخطاب؛ بوصف النص مظهراً لغوياً، فضلاً عن انتقاله بالخطاب من مستوى وظيفي إلى آخر، وتأسيساً على هذه الرؤيا عدَّ الدكتور يقطين البحث في انفتاح النص الروائي توسيعاً لتحليل الخطاب الروائي، وهذا يندرج في ما يعرف بـ (سوسيوسرديات) الخطاب[٧٧]، أي اعتماد الباحث على ما تقدمه السياقات الخارجية من إضاءات لتحليل الخطاب الروائي وفي مقدمتها السياق الاجتماعي.

ويتخذ الخطاب مفهوماً آيديولوجياً اجتماعياً عند الدكتور سعيد علوش، إذ عرَّفه بأنَّه ((مجموع خصوصي لتعابير تتحد بوظائفها الاجتماعية ومشروعها الآيديولوجي))[٧٨]، فالخطاب بحسب هذا المفهوم مجموعة من التعبيرات اللغوية، تُعنى بالجانب الاجتماعي من أجل تحقيق انطباعات آيديولوجية عند أفراد مجتمع معين، من شأنها أن تغدو في المستقبل معتقداً لأفراد ذلك المجتمع، ومن ثم تحقيق غاياتها المبتغاة، ولعلَّ هذا الفهم يصدق على الخطابات السياسية، والخطابات الاقتصادية أيضاً.

نخلص مما تقدم إلى أنَّ مصطلح الخطاب ينماز بجملة من الأسس التي لابد من توافرها فيه؛ كيما يكون خطاباً، وهذه الأسس هي:

١- ينضوي كل خطاب لغوي على نظام استعمالي للغة يتجلى في الجانب البنيوي والجانب الدلالي على حد سواء.

٢- يقوم الخطاب على عناصر مادية تمثلها البنيات اللغوية، وعناصر غير مادية تمثلها السياقات الخارجية، مثل السياق الاجتماعي، والمنحى الآيديولوجي لمنشئ الخطاب ومتلقيه.

٣- ينضوي كل خطاب على الوظيفة التواصلية، وهذه الوظيفة تقتضي توافر طرفين على الأقل يتحقق التواصل من خلالهما، هما مُنشئ الخطاب ومُتلقيه.

٤- ينهض كل خطاب على قصد معين، يُبنى على موضوع ما، ويقتضي ذلك الموضوع اشتراك أطراف الخطاب في معرفته؛ كيما يكون القصد مفهوماً من جهة مُتلقي الخطاب.

٥- يتسع الخطاب من الناحية البنيوية عند بعض الدارسين ليشمل الكلمة والجملة والنص معاً.

وإذا ما أنعمنا النظر في هذه الأسس، نجد أنَّ معظمها تصدق على مصطلح النص، بحسب المحصّلة التي خرجنا بها آنفاً من تعريفات النص عند الدارسين، ويبدو أنَّ بعضهم أدركوا ذلك، فذهبوا يبحثون عن الفوارق الحقيقية بين مصطلحي النص والخطاب، فجاءت محاولاتهم متمثلة بالآتي:

المبحث الثالث

الفرق بين النص والخطاب

اتخذت كلمتا النص والخطاب عند الدارسين المحدثين مفهوماً اصطلاحياً شابه الخلط والغموض أحيانا كثيرة، إذ لم يلمس الباحث حدوداً فاصلة بين المصطلحين إلا ما ندر، ولعل تلك الحدود الفارقة لم تتخذ سبيلها إلى الوضوح عند الدارسين، ومن أجل ذلك احتاجت إلى إيضاح نؤسس عليه فهماً جلياً للمصطلحين.

فإذا ما شئنا البحث عن الفروق الكائنة بين مصطلحي النص والخطاب، فإنَّه لابد لنا أن نبدأ أولاً بالثقافة الغربية؛ ذلك بأنَّها المجال المعرفي الأول الذي اكتسبت فيه الكلمتان مفهوماً اصطلاحياً.

ففي المحاولة التي قام بها بارت لتحديد ماهية النص من خلال موازنته بماهية العمل الأدبي، جعل بعضاً من مزايا النص أن يكون ماثلاً في لغة مكتوبة أو مسموعة يُقام من خلالها التواصل بين منشئ النص ومتلقيه، وهذا يعني من منظور بارت أنَّ النص لا وجود له إلا إذا تضمَّن في خطاب[٧٩]، وهذا يجعل من النص عنصراً يُمثِّل الوجه المادي الملموس من الخطاب، ومن ثمَّ هو عنصر من عناصر الخطاب فضلاً عن عناصر أُخَرَ، كالموقف، والمناسبة، والسياق الثقافي، والمنشئ، والمتلقي.

وإذا كان بارت قد جمع في رؤيته لتجليات النص بين المظهرين الماديين

(المنطوق والمكتوب)، فقد قصره الفيلسوف الفرنسي بول ريكور على الصورة المكتوبة المجسِّدة للخطاب فحسب، وفي ذلك يقول ((تطلق كلمة نص على كل خطاب تم تثبيته بوساطة الكتابة، وهذا التثبيت أمر مُؤسِّس للنص نفسه ومُقوِّم له))[٨٠]، ينطلق هذا التعريف من فهمٍ يرى أنَّ النص واقعة لغوية لا يمكن أن تتضح أبعادها إلا إذا كانت مُجسَّدة في بنيات لغوية مادية يكون التعامل معها تعاملاً ملموساً مباشراً؛ من أجل الظفر بمكنونها والوقوف على النظام المتحكم في حركتها، فهذا ما يمنح النص سمة الخطابية في حال كتابته فحسب، فيصبح بذلك صورة من صور الخطاب، وهي الصورة المادية المكتوبة، أما إذا كان الخطاب منطوقاً مشافهة، والمتلقي يتلقاه سماعاً، فهو ليس نصاً بحسب ما يراه ريكور.

أما اللغوي الأمريكي روبرت دي بوجراند فقد فرَّق بين النص والخطاب تفريقاً ضمنياً يرى فيه أنَّ ما يميِّز النص هو وقوعه في مجال الاتصال؛ أي إنَّ النص نتاج صادر عن طرف واحد يُراد به الاتصال مع الآخر في زمن معين، أما الخطاب فهو عبارة عن مجموعة من النصوص المرتبطة مع بعضها بعضاً في علاقات مشتركة، وبتعبير آخر إنَّ الخطاب عند دي بوجراند عبارة عن مجموعة من الوقائع النصوصية المُتوالية، وبإمكان المتلقي العودة إليها في أي وقت كان؛ فهي غير محددة بزمن الاتصال كما هي الحال مع النص، ثم اصطلح دي بوجراند على مجموعة الأحداث الخطابية المرتبطة مع بعضها بعضاً في سياق جماعي أو مجتمعي معين، بمصطلح (عالم الخطاب)[٨١].

نفهم من هذا أنَّ النص- بحسب فهم دي بوجراند له - مصطلح أكثر خصوصية من الخطاب؛ ذلك بأنَّه مرتبط بالجانب اللغوي والوظيفة الاتصالية الآنية أكثر من ارتباطه بالسياقات المحيطة بالحدث الكلامي، أما الخطاب فهو عالم أوسع من ذلك؛ فهو يشمل النص ويتجاوزه إلى أمور أُخَرَ، تتضح في

العلاقات المشتركة بين مجموعة النصوص المنتمية في أحداثها ووقائعها إلى جماعة أو إلى مجتمع معين، وهذا الارتباط يجعلها غير مرتبطة بلحظة التواصل الآنية كالنص، بل يمكن الرجوع إليها والاستضاءة بها أو دراستها في أي وقت كان، إنَّ هذا الفهم يقودنا إلى نتيجة مفادها أنَّ الخطاب مصطلح أعم من النص، وأكثر سعة وشمولية منه؛ فهو شامل لنص منتج في وقت معين، وشامل لنص منتج في وقت آخر، ومن ثم هو مفهوم شامل لمجموعة من النصوص.

أما على مستوى الثقافة العربية، فقد انبرى جمهور من الدارسين المحدثين لإيضاح الفارق بين مصطلحي النص والخطاب؛ إذ يؤكد الدكتور جمعان عبد الكريم أنَّ الخلط بين هذين المصطلحين ناشئ في الثقافة الغربية قبل انتقالهما إلى الثقافة العربية[٨٢]، ثم وجد هذا الخلط صداه عند بعض الدارسين العرب المحدثين، فاستعملوا النص بمعنى الخطاب تارة، والخطاب بمعنى النص تارة أخرى[٨٣]، ويبدو أنَّ هذا الأمر هو الذي حمل بعض الدارسين على البحث عن حدود فارقة بين المصطلحين، وكان الدكتور محمد العبد في مقدمتهم؛ إذ ميَّز بينهما من خلال تفريقه بين اتجاهين في الثقافة الغربية، أحدهما الاتجاه الأوربي، فقد كثر في هذا الاتجاه استعمال مصطلح النص على حساب مصطلح الخطاب، في حين غلب استعمال مصطلح الخطاب على حساب مصطلح النص في اتجاه آخر مثلته الثقافة الانجلو- أمريكية[٨٤]، ثم أضاف فروقاً أخَرَ تمثلت في النظرة الغالبة إلى النص بأنَّه بنية مترابطة تؤلف وحدة دلالية، في مقابل الخطاب الذي يُعد موقفاً - في المقام الأول - ينبغي لمستعمل اللغة أن يسعى إلى مطابقته لغوياً، وهذا يعني أنَّ الخطاب عبارة عن اجتماع السياقات الخارجية المجرَّدة والبنية اللغوية المادية المعبِّرة عنها، وقد استند الدكتور العبد في إثبات هذا الفرق إلى الناحية الكرافية (الكتابية) المقروءة؛ إذ

إنَّ ارتباط النص بها ليس أمراً محسوماً وثابتاً في عُرف الدارسين مقابل ارتباط الخطاب بالمنطوق المسموع، فكلاهما ليس أمراً قاراً، ومن ثم لا يمكن الاستناد إلى عنصري (الكتابية والشفاهية) في وضع الحد المائز بين المصطلحين، وهذا يرجِّح كفة التفريق الذي ساقه الدكتور العبد على كفة الرؤيا القائلة بارتباط النص بالكتابة وارتباط الخطاب بالمشافهة، ثم أضاف فرقاً آخر بين المصطلحين استند فيه إلى عنصري الطول والقصر في الكلام؛ إذ عدهما معياراً للتفريق بين المصطلحين، فالنص- بحسب رأيه- بنية ليس لها حدود معينة، فهي قد تطول وقد تقصر، في حين يتميز الخطاب بعنصر الطول(٨٥)، وأحسب أنَّ هذا الفرق نسبي ولا يُعتَدُّ به للتفريق بين المصطلحين مادامت اللغة أمراً مشتركاً بينهما، فالنص والخطاب سواء طالا أم قصرا، فهما خلق لغوي يتجلّى في ألفاظ اللغة حينما تغدو كلاماً مقروءاً أو مسموعاً، وهذا الكلام يكون محكوماً بشيئين: أحدهما طبيعة الموضوع المُعبَّر عنه، والثاني سياق الموقف، ولّما كان الموضوع والموقف متغيرين ولا يتسمان بالثبات، لم يكن من الممكن أن يُتخذ الطول والقصر في الكلام معياراً للتفريق بين النص والخطاب؛ لأنَّ الكلام يقتضي الإطالة والإطناب تارة، والقصر والإيجاز تارة أخرى، بحسب ما يتطلبه كل من طبيعة الموضوع وسياق الموقف.

ومن الدارسين العرب الذين فرَّقوا بين مصطلحي النص والخطاب الدكتور أحمد المتوكل؛ إذ أسَّس هذا التفريق على تعريف الخطاب؛ فاتخذ من الوظيفة التواصلية معياراً لتحديد مفهوم الخطاب، فعرَّفه بأنَّه ((كل ملفوظ/ مكتوب، يشكل وحدة تواصلية تامة))(٨٦)، ثم أوضح التعريف بأنَّ مفهوم الخطاب لا يقتصر على الكلام المتعدي للجملة؛ بل هو يصدق على كل كلام ملفوظ أو مكتوب يحقق وحدة تواصلية بين منشئٍ ومتلقٍ سواء أتعدى الجملة أم قَصُرَ عنها وكان كلمة واحدة، نحو قولك: شاياً، لمن تطلب منه شراباً، بصرف النظر

عن الإضمار الذي تدل عليه كلمة (شايا) من جهة فعلها وفاعلها.

وتأسيساً على هذا التعريف فرَّق الدكتور المتوكل بين الخطاب والنص، فإذا كان الخطاب- بحسب المتوكل- مصطلحاً عاماً يصدق على جميع أضرب الكلام التي تحقق تواصلاً، فإنَّه يرى أنَّ النص هو كل كلام تعدى الجملة سواء أكان ملفوظاً أم مكتوباً.

ثم بنى سُلَّماً لأقسام الخطاب جعل النص أكبرها من الناحية البنيوية، والكلمة أصغر وحدة بنيوية فيها، ومثَّل لها على النحو الآتي: النص - الجملة - المركب - الكلمة.

وهو لا يعني بالمركب هنا ما تراكبت فيه الألفاظ على نحو الإسناد الجملي، بل هو ما تراكبت فيه الأسماء على سبيل الإضافة (المضاف والمضاف إليه)، وكذلك ما تراكبت فيه الأداة مع الاسم، بشرط أن لا تشكل معه جملة اسمية أو شبه جملة، وهو في كل ذلك يؤكد أنَّ النص هو القسم الأمثل من بين أقسام الخطاب؛ لأنَّه بنية كبرى تضم أقسام الخطاب الأخَرَ، ويتجلى فيه الخطاب من الناحية البنيوية على أتم وجه[٨٧]، إذن الوظيفة التواصلية أولاً ثم الحجم تالياً هما الأساس الذي استند إليه المتوكل في تفريقه بين المصطلحين.

وبعد فليس لنا أن نُسَلِّمَ تسليماً تاماً بالتفريق الذي ساقه الدكتور المتوكل بين النص والخطاب؛ لأنَّه بُني على رؤيا تسعى إلى تأسيس مفهوم للخطاب يتوافق وما تسعى إليه نظرية النحو الوظيفي من جهة إدخالها الخطاب ضمن أدبياتها، وتأسيس نحو وظيفي للخطاب يختلف عن النحو الوظيفي للجملة، وقد صرَّح بذلك الدكتور المتوكل حينما وصف تعريفه للخطاب قائلاً إنَّ ((المعيار الأساسي في تحديد الخطاب معيارٌ وظيفيٌ وليس معياراً بنيوياً....

وهو معيار يتلاءم وطبيعة نظرية النحو الوظيفي))[٨٨]. من هنا يتضح أنَّ هذه الرؤيا خاصة باتجاه لغوي معين، ولا يصح إعمامها واتخاذها أساساً فريداً للتفريق بين المصطلحين.

ومهما يكن الأمر فإنَّ ما ساقه الدكتور المتوكل من تفريق بين المصطلحين، يلتقي مع بعض الرؤى التي سعت إلى التفريق بين النص والخطاب من دون أن تأخذ في حسابها أن يأتي تفريقها متوافقاً مع نظرية النحو الوظيفي أو سواها، وبناءً على ذلك يكون التفريق الذي ساقه الدكتور المتوكل منضوياً على جانب من السلامة العلمية ما يدعونا إلى وضعه ضمن الرؤى العربية المعنية بمصطلحي النص والخطاب.

وثمة باحث آخر عزا الخلط الحاصل بين مصطلحي النص والخطاب في الثقافة العربية الحديثة إلى تنوع التخصصات التي ينتمي إليها الدارسون؛ فهو يرى ((أنَّ بينهما اختلافاً؛ فالنص.... هو مجمل القوالب الشكلية: النحوية والصرفية والصوتية، بغض النظر عما يكتنفه من ظروف أو يتضمنه من مقاصد، في حين يحيل الخطاب على عناصر السياق الخارجية في إنتاجه وتشكيله اللغوي، وكذلك في تأويله، وهذا يفترض معرفة شروط إنتاجه وظروفه، كما أنَّ هناك فرقاً في العلامات المستعملة، فقد يُنتج الخطاب بعلامات غير لغوية، كما هو الحال في التمثيل الصامت، أو الرسم الكاريكاتوري، أو الخطاب الإعلاني التجاري الذي قد يقتصر على استعمال علامات غير لغوية))[٨٩].

يبدو من التعريف أنَّ الأساس الذي استند إليه الباحث في تفريقه بين المصطلحين، هو قصره النص على الجوانب اللغوية الشكلية، وعزله عن السياقات الخارجية التي أفضت إلى إنتاجه، وعن المقاصد التي يحتويها، وفي مقابل هذا جعل من تلك السياقات أساساً في إنتاج الخطاب وبنائه لغوياً، ثم

جعل المقاصد الكامنة فيه أساساً آخرَ لتجلّيه خطاباً عند متلقيه عن طريق التأويل الذي يقتضيه السعي وراء مقاصده الكامنة، وهذا يتطلب من المتلقي استدعاء السياقات الخارجية من أجل تفكيك بنيته، والظفر بدلالاتها، ومن ثم الوقوف على مقاصد الخطاب، ولعلَّ تلك القضايا لا تنهض فروقاً حاسمة بين المصطلحين، فإذا كان الخطاب عبارة عن اجتماع ظروف إنتاجه مع بنيته اللغوية في عملية تأويلية تسعى إلى الظفر بدلالاته ومقاصده، فكذلك هو النص، عبارة عن اجتماع البنية اللغوية وظروف الإنتاج والمقاصد في بؤرة واحدة هي النص، ثم يأتي المتلقي باحثاً ومؤولاً لها، وعلى الرغم من هذا فقد أصاب الباحث في إشارته إلى الفرق الكائن بين طبيعة الخطاب اللغوي، وأنماط الخطاب غير اللغوية التي ليس لها أن تتصف بالنصية، كالإعلان التجاري، والرسم الكاريكاتوري، فهي علامات سيميائية دالة من دون أن تتجسد في بنية لغوية نصية، وهنا يلتقي الباحث مع دي سوسير الذي جعل اللغة جزءاً من علم أوسع هو علم العلامات العام[٩٠].

نخلص مما تقدم إلى أنَّ الفرق بين النص والخطاب- بحسب الرؤى المذكورة آنفا- يكمن في ستة جوانب هي:

١- يمثل النص الجانب اللغوي المكتوب أو المنطوق عند بعض الدارسين، ومن ثم يكون النص هو الجزء المادي من الخطاب.

٢- تمثِّل سمة الكلية (الشمولية) حداً فارقاً بين النص والخطاب عند بعض الدارسين، فالخطاب مفهوم شامل للنص؛ لأنَّه يمثل مجموعة النصوص والأحداث المتوالية المنتمية إلى ثقافة ما، التي يمكن الرجوع إليها في أي وقت كان، على حين يقتصر النص على الوظيفة الاتصالية الآنية فحسب.

٣- يقتصر مفهوم النص عند بعض الدارسين على الجانبين البنيوي والدلالي، في حين يتجاوز الخطاب هذين الجانبين إلى الظروف

الخارجية التي أسهمت في إنتاجه.

٤- إنَّ البنية اللغوية شرط أساس لتحقق سمة النصية في الكلام، أما الخطاب فليس ذلك شرطاً فيه، فقد يكون علامات غير لغوية دالة في مخاطبتها المتلقين، كالإعلانات التجارية وما يناظرها.

٥- استند بعض الدارسين إلى عنصري الطول والقصر في التفريق بين النص والخطاب، وبحسب هذه الرؤيا يكون الخطاب هو الكلام الملازم لصفة الطول، في حين لا يُشترط ذلك في النص، فقد يطول وقد يقصر.

٦- فرَّق بعض الدارسين بين المصطلحين على أساس العموم والخصوص من الناحية البنيوية، وبحسب هذه الرؤيا يكون الخطاب مصطلحاً شاملاً لعموم البنيات اللغوية سواء أكانت كلمة أم جملة أو مركبا أو نصاً، بشرط أن ينضوي على وظيفة التواصل، أما النص فهو ما تعدى الجملة من ناحية الحجم البنائي.

يبدو أنَّ الفرق بين النص والخطاب لا يكمن في معظم الفروق التي ألفيناها عند الدارسين؛ فالكلام لا يكتسب صفة النصَّية أو الخطابية إلا إذا أريد به الإبلاغ والتواصل بين طرفين أو أكثر، وهذا يعني أنَّ كلاً من النص والخطاب يتطلب وجود طرفين في الأقل، أحدهما يكون منشئاً للنص أو منتجاً للخطاب، والآخر متلقياً له، ثم إنَّ عملية الإرسال والتلقي لا تتمُّ إلا من أجل تحقيق قصد معين، يُؤسَس على موضوع مشترك بين طرفي الخطاب، ويكون محكوماً بسياقات معينة، وهذا يعني أنَّ وظيفة التواصل بين المرسل والمتلقي، والموضوع المشترك بينهما، والقصد المراد من النص أو الخطاب، كلها عناصر طبيعية يُشترط وجودها في كل نص أو خطاب، ومن ثم لا يمكن أن تُتَّخذ مزايا فارقة بين المصطلحين، فضلاً عن ذلك إنَّ سمة (الاستعمال اللغوي)

التي جعلها بعض الدارسين مزية فارقة بين النص والخطاب، ليست سوى سمة جامعة بينهما؛ فكلاهما يتجلى في صورة من صور الاستعمال اللغوي الذي يُراد به قصداً معينا، وهذا القصد- كما أسلفنا- يتطلب موضوعاً يُبنى عليه، ويكون هذا الموضوع مشتركاً بين طرفي الخطاب/ النص، ويكون منضوياً على وظيفة التواصل، أما ثنائية الكتابة والنطق الشفاهي بالكلام، فليست هي الأخرى علامة فارقة بين المصطلحين؛ فالنص قد يكون منطوقاً شفاهاً في الآن الذي يُنشأ فيه ثم يُكتب فيما بعد، كما هي الحال في كثير من نصوص الخطابة العربية التي وصلت إلينا مدوَّنة، بيد أنَّها ألقيت شفاهاً في لحظة إنشائها، ولاسيما النصوص المرتجلة منها في ساحة الحرب مثلاً، ومن ناحية أخرى قد ينشأ النص مكتوباً، كما هي الحال في نصوص الرسائل العربية التي أُثِرَت عن السلف، وقد كُتبت من منشئ معين إلى متلقٍ معين، وما قلناه على النص من ناحية الكتابة والمشافهة ينطبق على الخطاب أيضا، أما سمة الطول والقصر فهي الأخرى لا تنهض مزيَّة فارقة بين المصطلحين، وقد جرت مناقشتها في موضعها، ونزيد هنا فنقول إنَّ الموضوعات والمقامات والمناسبات تقتضي ما تقتضيه من ضروب القول وأفانين التعبير التي قد تطول وقد تقصر.

وبناءً على ما تقدم يرى الباحث أنَّه إذا كان ثمة فرق بين النص والخطاب من الناحية اللغوية فإنَّ هذا الفرق يكمن في بناء الخطاب على قضية أو مجموعة من القضايا[٩١]، سواء أكانت بسيطة أم معقدة، كبيرة أم صغيرة، ثم تأتي البنى اللغوية لتجسِّد تلك القضايا في صورة مادية عمادها الاستعمال اللغوي، فيكتسب الخطاب حينئذٍ سمة النصِّية، سواء أكان منطوقاً أم مكتوباً، ومثالنا على القضايا الخطابية جدلية الموت والحياة، التي تمثل قضية كبرى ذات طابع وجودي مركزي، يُعد جزءاً من النظام الكوني الذي اختطه الخالق لحركة

الكائنات في الوجود؛ إذ استولت تلك الثنائية على قسط كبير من تفكير الإنسان، حتى غدت صراعاً دائراً بين الإدراك الحسي لمعالم تلك الثنائية، وبين الإدراك العقلي المجرد لها، فنتج عن ذلك صراع الإدراك الحسي مع المجرد في عقل الإنسان، تحوَّلت معه تلك الثنائية إلى جدلية ذات طابع أزلي غير منقطع عن تفكير البشرية جمعاء، بيد أنَّ الرسالات السماوية أسهمت بشكل فاعل في تقديم فهم دقيق لتلك الجدلية، جعلت معظم الناس في تماس مباشر معها، حتى أدركوا حقيقتها حساً وعقلاً، ثم جاءت الرسالة السماوية الخاتمة، فأعطت تلك القضية مساحة واسعة؛ لأنَّها واحدة من أسس الاختبار الأرضي من لدن الخالق للمخلوق، فكان القرآن الصورة اللغوية المادية المجسِّدة لتلك القضية الخطابية الكبرى، ومنذ الحين الذي نزل فيه القرآن بلغة العرب، انفردت الحضارة العربية عن الحضارات البعيدة والمجاورة بأن أضحت حضارة الكلمة والقرآن معاً.

ويسند الرؤيا المتقدمة ما قاله الدكتور عبد الواسع الحميري عن الخطاب والنص، فهو يرى أنَّ الخطاب ((هو نسق التفكير في الأشياء، ونسق التعبير عنها، أو هو عبارة عن النسق الذهني المجرد للكلام الذي نتكلمه بالقوة أو بالفعل، إنَّه بتعبير آخر نظام التكلم (التفاعل) ومنطقه الذي علينا أن نلتزمه في كل موقف تواصلي على حدة، فهو إذن الشكل المجرد للكلام المُتَكلَّم في حقل ما من حقول المعرفة، أو في مجال ما من مجالات الحياة التي نحياها جميعاً أفراداً وجماعات، وأنَّ النص- انطلاقاً من هذا - هو الشكل المجسِّد للخطاب))[٩٢].

أما القرآن فقد نزل من السماء منطوقاً على لسان ملك كريم، وتلقاه الرسول سماعاً، وبلَّغه للناس شفاهاً؛ إذ لم يكن مدوناً في بداية الدعوة الإسلامية، ثم دُوِّن بعد ذلك، وصار الناس يتلقونه قراءة وسماعاً، فاكتسب صفتي النصية والخطابية عند علماء العربية المتقدمين منهم والمتأخرين، بيد أنَّ

هذا التوصيف لم يكن من باب الاصطلاح، بل أُطلِقت كلمتا النص والخطاب على أبعاضٍ من القرآن آنذاك، وأريد بهما المعاني التي ألفيناها عند أصحاب المعجمات العربية في كلمتي النص والخطاب، ثم وصل إلينا القرآن مدوناً في آيات تضمُّها سورٌ مجموعة بين دفتي كتاب، وصرنا نقرأها تارة ونسمعها تارة أخرى، فأطلقنا على تلك الآيات والسور مجتمعة كلمتي النص والخطاب، ومضى بعض الدارسين المحدثين يطلقون على القرآن كلمة نص، فقالوا (النص القرآني)، ومضى آخرون يطلقون عليه كلمة خطاب، فقالوا (الخطاب القرآني)، ثم غدا النص والخطاب مصطلحين متداولين في الدراسات اللغوية والنقدية الحديثة الغربية منها والعربية، وبتنا لا ندرى إلى أيِّهما ينتمي القرآن، أهو نص أم خطاب؟ أم أنَّ المحدثين نسجوا على منوال القدماء فاستعملوا كلمتي النص والخطاب مع القرآن بمعناهما اللغوي الذي توارد عليه المعجميون العرب؟.

أما الباحث فقد أسس مفهومه للنص والخطاب على أساس (القضية وتجسيدها)، وهو مفهوم رآه يتناسب مع النصوص والخطابات الإبداعية وفي طليعتها القرآن، بوصفه إبداعاً متفرداً ليس كمثله شيء، فضلاً عن أنماط الكلام غير الإبداعي، ومن القضايا الكبرى التي وقف عندها القرآن وجسدها، قضية (القيامة)، ففي سورة (القارعة) مثَّلت كلمة (القارعة) القضية الخطابية الكبرى التي جسَّدتها الآيات في بنية نصِّية تدرَّجت السورة في بيان حقيقتها للمتلقي من آية إلى أخرى، حتى غدت نصاً مسموعاً ومقروءاً، وهي في الوقت نفسه خطابٌ مُرسَلٌ من منشئ واحد إلى جمهور المتلقين كافة، يُراد منه- في المقام الأول- الإبلاغ والتواصل، وهو يحمل قصداً بُني على موضوع معين، وقد تجسَّد في استعمال لغوي مخصوص يصدق عليه مصطلحا النص والخطاب من ثلاث جهات، من جهة القضية التي يحملها، ومن جهة

الصورة النصية المجسِّدة لتلك القضية، ومن جهة توافره على عناصر الخطاب والنص معاً.

وفي ضوء ما تقدم بات واضحاً أنَّ النص والخطاب وإن كانا مصطلحين حديثين، فهما يصدقان على القرآن كله، أو على بعضه، فمن الممكن أن نصفه، أو أن نصف آية من آياته أو سورة من سوره بأنَّها نص أو خطاب؛ ذلك بأنَّ القرآن خطاب مبني على قضايا كونية كبرى، يستند إليها المجتمع الإنساني في ضبط التطور المتلاحق لفئاته، وتقنين العلاقات الكائنة فيما بينها، وقد تطلب هذا الأمر تجسيد تلك القضايا في نصوص مادية مسموعة أو مقروءة، تضبط مسار المجتمع وتقنن العلاقات بين أفراده مهما كانت تلك العلاقات معقدة.

الخاتمة:

بعد المسيرة العلمية التي تقصّى الباحث فيها جزئيات الموضوع، استطاع الخروج منها بنتائج، تكمن بالآتي:

١- لم يحظَ مصطلحا النص والخطاب في التراث النقدي واللغوي عند العرب برؤيا تقترب بهما من الاصطلاح، بل بقيا ملازمين لمعانيهما المعجمية، ومن ثم لم يكن ثمة تماس بين القديم والحديث في هذا الجانب.

٢- كشفت الدراسة عن تنوع مفهوم النص بين الدارسين المحدثين، ولاسيما بين النقاد واللغويين، على الرغم من طبيعة المنحى التواصلي للنص الذي يُعد حلقة الوصل بين رؤاهم؛ بيد أنَّ اختلاف الماهية بين النص الإبداعي والنص الاعتيادي جعلهم يصدرون عن أساس مختلف، فالفارق القصدي والاستعمالي كبير بين هذا وذاك؛ من هنا ارتبط

مفهوم النص عند معظم النقاد المحدثين بسياقاته المحيطة التي تمثل (عالم النص) في منظورهم، وليست اللغة سوى الكيان المادي المُجسِّد لهذا العالم بطرق مخصوصة؛ لذا جاء مفهوم النص مبنياً على تعدد المدلولات التي تتجاوز مبناه اللغوي الذي قد لا يتعدى سوى معنى واحد، في حين يقتضي عالم النص مغادرة الدلالات الأولية المستحصلة من النص الى عالم أرحب من شأنه أن يمنح النص سمة الانفتاح الدلالي التي تضمن له ديمومة الفاعلية والتجدد مع الأجيال المتعاقبة.

٣- لقد بدا البعد الوظيفي في النص والخطاب قرين الجانب (الكرافي) الكتابي عند معظم الدارسين، سواء النقاد منهم أم اللغويين؛ إذ أدركوا أنَّ الملفوظ أو المقروء ليس له قيمة بنفسه دون الوظيفة التي يؤديِّها في التواصل بين أفراد المجتمع البشري.

٤- لّما كان لمصطلحي النص والخطاب جذور في التراثين الغربي والعربي، جاز وصف القرآن بهما ابتداءً؛ حملاً على بعض المعاني اللغوية الماثلة في المعجمات العربية.

٥- كشف البحث عن سعي الدراسات النقدية الحديثة الى إعطاء النص مكانة المحور المركزي في عملية التواصل الدائم بين المنجز الإبداعي والعقل المتلقي، وهو أمر قُصد به منح النص سمة الحيوية والبقاء المتجدد مع الأجيال المتلاحقة؛ ولعلَّ هذا الملحظ يصدق على القرآن؛ بوصفه بنية لغوية مفتوحة الدلالات والمفاهيم على شتى أصناف المتلقين.

٦- اتخذ الخطاب عند معظم الدارسين المحدثين مفهوماً أوسع من النص؛ إذ جعلوا النص عنصراً من عناصر الخطاب اللغوي؛ بوصفه الصورة

اللغوية المادية التي يتجلّى بها الخطاب الى متلقيه، وهو أمر جعل الخطاب في منظور الدارسين يمثّل عالماً يضم النص ويتجاوزه الى عناصر أُخَرَ، كالموقف، والمناسبة، والسياق الثقافي العام، ومقام المخاطَب، ثم اصطلحوا على هذا بـ(عالم الخطاب).

٧- خلص البحث الى أنَّ الفرق بين مصطلحي النص والخطاب من الناحية اللغوية يكمن في أنَّ الخطاب عبارة عن قضية أو مجموعة من القضايا، يقتضي تداولها بين طرفين عاقلين تجسيدها في بنى لغوية مناسبة تمنحها كينونتها المادية سواء أكانت مكتوبة أم منطوقة.

٨- استناداً الى النتيجة السابقة يكون القرآن إبداعاً فريداً يصدق عليه مصطلحا النص والخطاب في الآن نفسه؛ إذ يصدقان على القرآن كله أو على بعضه، وإن كان مفهومهما الاصطلاحي الحديث مغايراً لمعناهما المعجمي القديم.

Abstract

This research aims at studying the Quran of the two term text and discourse, within the Quranic speech, as a unique speech in which the first stage of the Islamic call are magnified, hence the Quran structure followed a dynamic system to represent its stylistic nature that dominates its march towards its aims, so it goes beyond the partial stylistic scope on which the modern critical methods interested a larger scopes such as that of the textual style of the whole sura and that have made it the center, on the level of structure and of content, so the stylistic system became dominating by controlling the movement of the elements that form the sura in a dynamic method that secures it cohesion towards a certain aim.

This involve depending on a scientific method links between description and analysis to reach the stage of interpretation and justification. Since that the dominating stylistic system is of a

total comprehensive feature, the researcher has to take his applied tools mostly from the field of text and speech analysis, hence the references are that of the speech linguistics and text as well as some of the analytic tools that the researcher takes from the methods of the modern literary criticism and ancient Arabic rhetoric. According to this methodological march the thesis has been divided into a preface four chapter and a conclusion.

هوامش البحث

(١) ينظر: ليندة قياس: لسانيات النص:١٨، وباتريك شارودو ودومينيك منغنو: معجم تحليل الخطاب، ترجمة: عبد القادر المهيري وحمّادي صمّود:٥٥٣، وفولفجانج هاينه وديتر فيهفيجر: مدخل الى علم اللغة النصي، ترجمة: فالح العجمي:٤.

(٢) ينظر:ابن دريد: جمهرة اللغة:٤٧٦/١ مادة (نسج)، وابن منظور: لسان العرب:٣٧٦/٢ مادة (نسج).

(٣) الفراهيدي: العين:٨٦/٧-٨٧ مادة (نص).

(٤) ابن فارس: مقاييس اللغة:٣٥٦/٥ مادة (نص).

(٥) ينظر: ابن منظور: لسان العرب:٩٧/٧، مادة (نصص).

(٦) ينظر: سعيد يقطين: من النص الى النص المترابط:١١٥.

(٧) ينظر: ابن الطيب المعتزلي: المعتمد في أصول الفقه:٢٩٤، وأبو اسحاق الشيرازي: المعونة في الجدل:٢٧، والسيوطي: الاتقان في علوم القرآن:٨٤/٢، ونصر حامد أبو زيد: مفهوم النص- دراسة في علوم القرآن:١٨٠.

(٨) (الظاهر، والنص، والمفسر) من المصطلحات المستعملة في مجال أصول الفقه الحنفي الى جانب مصطلحات أخَرَ، ينظر في تعريفها: البزدوي: أصول البزدوي:٧-٩، وأحمد عبد الغفار: التصور اللغوي عند علماء أصول الفقه:١٤٣ وما بعدها، وسيروان عبد الزهرة الجنابي: الإجمال والتفصيل في التعبير القرآني:٣٦ وما بعدها، وكذلك الصفحة:٢٢٨ وما بعدها.

(٩) أحمد عبد الغفار: التصور اللغوي عند علماء أصول الفقه:١٤٦.

(١٠) ينظر: عبد القادر شرشار: تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص:١٧.

(١١) يصدق هذا الحكم على علماء التفسير والباحثين في مجال علوم القرآن؛ إذ تابع الباحث استعمال لفظة (نص) في كتب التفسير ومصنفات علوم القرآن التي أُثِرت عن السلف، فلم يجدها مقترنة بالقرآن (النص القرآني) إلا عند بعض المتأخرين من المفسرين، مثل أبي حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط:٦٣١/١، والشوكاني في تفسيره فتح القدير:٤٧٠/٤.

(١٢) الجرجاني: التعريفات:٣٠٩.

(١٣) ينظر: تعريف البزدوي للنص في كتابه: أصول البزدوي:٨، وتعريف السرخسي له في كتابه: أصول السرخسي:١٦٤/١.

(١٤) ينظر: سعيد حسن بحيري: علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات: المقدمة:١٠.

(١٥) ينظر: محمد خطابي: لسانيات النص:٢٧، وسعيد يقطين: انفتاح النص الروائي- النص والسياق:١٤، وإبراهيم محمود خليل: في اللسانيات ونحو النص:١٩٥.

(١٦) ينظر: فولفجانج هاينه وديتر فيهفيجر: مدخل الى علم اللغة النصي، ترجمة: فالح العجمي: مقدمة المؤلفَيْن: ص١.

(١٧) من الدراسات العربية التي أرّخت لنشأة علم لغة النص هي دراسة: جمعان عبد الكريم: إشكالات النص دراسة لسانية نصية:١٩ وما بعدها، وسعيد حسن بحيري: علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات:١٧ وما بعدها، ومحمد الشاوش: أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية: ٦٩/١ وما بعدها، ومن الغربيين، ينظر: كلماير وآخرون: أساسيات علم لغة النص:١٣٣ وما بعدها، وروبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء:٦٤ وما بعدها.

(١٨) جوليا كريستيفا: علم النص: ترجمة فريد الزاهي: ٩ - ١٠.

(١٩) جوليا كريستيفا: علم النص: ١٤.

(٢٠) م.ن:٢١.

(٢١) ينظر: م.ن: ٢١.

(٢٢) التناص مصطلح نقدي وضعته كريستيفا وأرادت به: خصيصة من خواص النصوص، تقوم على أساس التعالق بين نص معين ونصوص سابقة عليه. ينظر: سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة:٢١٥.

(٢٣) ينظر: رولان بارت: من العمل الى النص، مقال ترجمه: محمد خير البقاعي ضمن كتاب: دراسات في النص والتناصية:١٠وما بعدها.

(٢٤) رولان بارت: نظرية النص، مقال ترجمه: محمد خير البقاعي ضمن كتاب: دراسات في النص والتناصية:٢٦.

(٢٥) م. ن:٢٦.

(٢٦) وردت هذه المفاهيم عند كريستيفا في مواضع متفرقة من كتابها (علم النص)، وغدت فيما بعد منهاجاً لمن جاء بعدها.

(٢٧) ينظر: رولان بارت: من العمل إلى النص، ضمن كتاب: دراسات في النص والتناصية:١٢-٢٠.

(٢٨) موت المؤلف مصطلح ظهر في كتابات بارت، وأراد به: إنَّ المؤلف ليس له سلطة على عمله أو وصاية دائمة تصاحبه في العصور جميعاً، فنحن اليوم نقرأ رواية لبلزاك بمعزل عن مؤلفها

وظروفه وطبيعة نشأته وانتكاساته النفسية، فهذا من صنع المناهج السياقية التي منحت المؤلف محل الصدارة في نقدها النصوص الإبداعية كالمنهج الاجتماعي والمنهج التأريخي، أما اليوم فلم تعد للمؤلف سلطة أو وصاية على نصه مع انبثاق المناهج النصية في نقد النصوص الإبداعية التي تُعنى بالنص فحسب بمعزل عن منتجه. ينظر: رولان بارت: موت المؤلف: بحث ترجمه الدكتور: محمد درويش ضمن مجموعة بحوث في كتابه: اتجاهات في النقد الأدبي الحديث:٣٨٦ وما بعدها.

(٢٩) ينظر: سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي- النص والسياق:١٣-١٤، وهذه الرؤى تابعة لأربعةٍ من الدارسين هم (شلوميت، وفاولر، وليتش، وشورت).

(٣٠) ينظر: صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص:٣٠٠-٣٠١، وسعيد حسن بحيري: علم لغة النص:١٣٨-١٣٩.

(٣١) ينظر: سعيد حسن بحيري: علم لغة النص:١٢٥.

(٣٢) ينظر: م. ن:١٢٥وما بعدها، وليندة قياس: لسانيات النص:٢٢، وزتسيسلاف واورزنياك: مدخل إلى علم النص، ترجمة: سعيد حسن بحيري:٦٨.

(٣٣) هناك مجموعة من الدارسين الألمان الذين سلكوا الاتجاه الأول في تعريف النص، ومنهم هلبش، وبليرت، وايزنبرج، وهارفج، وقد أورد اللغوي الالماني واورزنياك تعريفاتهم في كتابه: مدخل الى علم النص:٦٢-٦٤، ومن أجل ذلك آثرنا أن لا نثقل البحث بذكرها؛ لذا اكتفينا بالاشارة اليها.

(٣٤) ينظر: كلاوس برينكر: التحليل اللغوي للنص، ترجمة: سعيد حسن بحيري:٣٤، وسعيد حسن بحيري: علم لغة النص:١٢٦.

(٣٥) ينظر: أحمد عفيفي: نحو النص:٢٣.

(٣٦) سعيد حسن بحيري: علم لغة النص:١٢٧.

(٣٧) الأزهر الزناد: نسيج النص:١٢.

(٣٨) طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي:٣٨٧.

(٣٩) سعيد حسن بحيري: علم لغة النص:١٢٥.

(٤٠) م. ن:١٢٥.

(٤١) م. ن:١٣١.

(٤٢) ينظر: فان دايك: النص والسياق، ترجمة: عبد القادر قينيني:١٩-٢٠.

(٤٣) ينظر: سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي- النص والسياق:١٦.

(٤٤) ينظر: M. Halliday and R. hasan: Cohesion in English:293.

(٤٥) ينظر: روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمّام حسّان:٨٩-٩٤.

(٤٦) جان ماري سشايفر: القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ترجمة: منذر عياشي:٥٣٣.

(٤٧) سعيد حسن بحيري: علم لغة النص:١٣١.

(٤٨) سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي- النص والسياق:١٧.

(٤٩) م.ن: المقدمة:٥-٦.

(٥٠) سعيد حسن بحيري: علم لغة النص:١٣٢.

(٥١) اللوغوس: مصطلح يوناني قديم، ظهر عند الفلاسفة، ويعني الخطاب، أو الكلام، أو العقل، وقد لاقى رواجاً في الفلسفة الكلاسيكية الغربية، ثم وجد صداه عند بعض الفلاسفة المحدثين، مثل الفرنسي جاك دريدا الذي انطلق منه لتأسيس النزعة التفكيكية واتخاذها نقيضاً للمركزية الغربية التي يُعد اللوغوس عمادها. ينظر: سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة:٢٠٠.

(٥٢) ينظر: بول ريكور: نظرية التأويل- الخطاب وفائض المعنى، ترجمة: سعيد الغانمي:٢٤.

(٥٣) ربيعة العربي: الحد بين النص والخطاب:٣٣، بحث منشور في مجلة (علامات)، ع٣٣، ٢٠١٠م.

(٥٤) ينظر: م.ن:٣٣.

(٥٥) ينظر: م.ن:٣٣-٣٤.

(٥٦) سورة ص: من الآية:٢٠.

(٥٧) ينظر: الفراهيدي: العين:٢٢٢/٤ مادة (خطب)، وابن فارس: مقاييس اللغة:١٩٨/٢مادة (خطب)، والزمخشري: أساس البلاغة:١٦٧-١٦٨مادة (خطب)، وابن منظور: لسان العرب:٣٦٠/١ مادة (خطب).

(٥٨) عبد الهادي الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية:٣٦.

(٥٩) علي بن محمد الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام:١٣٦/١.

(٦٠) لقد أوضح الآمدي التعريف الذي ساقه للخطاب بقوله (((فاللفظ) احتراز عما وقعت المواضعة عليه من الحركات والإشارات المفهمة، و(المتواضع عليه) احتراز عن الألفاظ المهملة، و(المقصود بها الإفهام) احترازاً عما ورد على الحد الأوَّل، وقولنا: (لمن هو متهيئ لفهمه) احتراز عن الكلام لمن لا يفهم، كالنائم والمغمى عليه ونحوه)). الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام:١٣٦/١.

(٦١) ينظر: جبور عبد النور: المعجم الأدبي:١٤١.

(٦٢) لم يعثر الباحث على لفظ الخطاب مقترنا بلفظ القرآن (الخطاب القرآني) عند المفسرين القدماء، بل أطلقوا لفظ الخطاب على مواضع من القرآن في أثناء تفسيرهم لها، ومثال ذلك ما ورد عند الزمخشري في مواضع كثيرة من تفسيره الكشاف، ومنها:١٢٢/١، وما ورد عند أبي السعود في تفسيره إرشاد العقل السليم:٦٣/١، وكذلك ما ورد في تفاسير أُخَرَ لا مجال لذكرها هنا.

(٦٣) ينظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن:٢١٧/٢ وما بعدها.

(٦٤) زيلغ هاريس: لغوي روسي الأصل، هاجر إلى أمريكا واستقر بها يُدرِّس في جامعة بنسلفانيا، فنُسب الى المدرسة الأمريكية؛ لذا نسبه الباحث الى أمريكا في المتن.

(٦٥) ينظر: جمعان عبد الكريم: إشكالات النص:٣٥.

(٦٦) م.ن:٣٥.

(٦٧) ينظر: م.ن:٣٦.

(٦٨) ينظر: جبور عبد النور: المعجم الأدبي:٦٠.

(٦٩) ينظر: سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي- الزمن، السرد، التبئير:٢٤-٢٥.

(٧٠) ينظر: أوليفي روبول: لغة التربية- تحليل الخطاب البيداغوجي، ترجمة: عمر أوكان:٤١-٤٢.

(٧١) جورج مولينيه: الأسلوبية: ترجمة بسام بركة: مقدمة المترجم:٢٠.

(٧٢) محمد محمد يونس: المعنى وظلال المعنى:١٥٧.

(٧٣) سعيد حسن بحيري: علم لغة النص:١٣٤، وهذا الفهم هو نفسه الذي قال به الدكتور صلاح فضل في الصحيفة:٣١٠ من كتابه (بلاغة الخطاب وعلم النص).

(٧٤) الزواوي بغورة: الفلسفة واللغة- نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة:١٥٧.

(٧٥) طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي:٢١٥.

(٧٦) ينظر:م. ن: هامش الصحيفة:٢١٥.

(٧٧) ينظر: سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي- النص والسياق: مقدمة المؤلف:٥.

(٧٨) سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة:٨٣.

(٧٩) ينظر: رولان بارت: من العمل الى النص، ضمن كتابه دراسات في النص والتناصية:١٣.

(٨٠) بول ريكور: النص والتأويل، ترجمة: منصف عبد الحق:٣٧، بحث منشور في مجلة (العرب والفكر العالمي)، ع٣، ١٩٨٨م، وكتابه: نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى:٥٦.

(٨١) ينظر: روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والاجراء، ترجمة: تمام حسان:٧٢.

(٨٢) ينظر: جمعان عبد الكريم: إشكالات النص:٣٤.

(٨٣) من الباحثين العرب الذين استعملوا الخطاب والنص بمعنى واحد الدكتور محمد خطابي في كتابه (لسانيات النص- مدخل الى انسجام الخطاب)، والدكتور محمد الشاوش في كتابه (أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية- تأسيس نحو النص).

(٨٤) ينظر: محمد العبد: النص والخطاب والاتصال:٧.

(٨٥) ينظر: م. ن:١٢.

(٨٦) أحمد المتوكل: الوظيفية بين الكلية والنمطية:٢٢، وهو التعريف نفسه الذي ساقه للخطاب في كتابه: الخطاب وخصائص اللغة العربية:٢٤.

(٨٧) ينظر: أحمد المتوكل: الوظيفية بين الكلية والنمطية:٢٣.

(٨٨) م. ن:٢٢.
(٨٩) عبد الهادي الشهري: استراتيجيات الخطاب:٣٩.
(٩٠) ينظر: فرديناند دي سوسير: علم اللغة العام، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز:٣٤.
(٩١) القضية: مصطلح يُراد به فكرة ذات طابع مركزي، تُعرض على متلقٍ عاقل بطريقة معينة، من أجل بيان صحتها من خطئها. ينظر: جبور عبد النور: المعجم الأدبي:٢١٤.
(٩٢) عبد الواسع الحميري: الخطاب والنص:٣٦.

قائمة المصادر والمراجع

- إبراهيم محمود خليل (الدكتور): في اللسانيات ونحو النص، دار المسيرة، عمّان- الأردن، ط٢، ١٤٣٠هـ -٢٠٠٩م.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥هـ): معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت- لبنان، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م، د.ط.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري (ت٧١١هـ): لسان العرب، دار صادر، بيروت- لبنان، ط١، د.ت.
- أحمد عبد الغفار (الدكتور): التصور اللغوي عند علماء أصول الفقه، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية- مصر، ١٩٩٦م، د.ط.
- أحمد عفيفي (الدكتور): نحو النص- اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة- مصر، ط١، ٢٠٠١م.
- أحمد المتوكل (الدكتور):
  - الخطاب وخصائص اللغة العربية، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
  - الوظيفية بين الكلية والنمطية، دار الأمان، الرباط – المغرب، ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- الأزدي، محمد بن الحسن بن دريد (ت٣٢١هـ): جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٨٧م.
- الأزهر الزناد (الدكتور): نسيج النص- بحث في ما يكون به الملفوظ نصاً، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ط١، ١٩٩٣م.
- الآمدي، أبو الحسن علي بن محمد (ت٦٣١هـ): الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: الدكتور سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م.

- الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف (ت٧٤٥هـ): البحر المحيط، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق: الدكتور زكريا عبد المجيد النوقي، والدكتور أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١،١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- أوزوالد ديكرو وجان ماري سشايفر: القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ترجمة: الدكتور منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ط٢، ٢٠٠٧م.
- أوليفي روبول: لغة التربية- تحليل الخطاب البيداغوجي، ترجمة: الدكتور عمر أوكان، أفريقيا الشرق- المغرب، ٢٠٠٣م، د.ط.
- باتريك شارودو ودومينيك منغنو: معجم تحليل الخطاب، ترجمة: الدكتور عبد القادر المهيري والدكتور حمادي صمود، دار سيناترا للترجمة، تونس، ٢٠٠٨، د.ط.
- البزدوي، علي بن محمد (ت٤٨٢هـ): أصول البزدوي المعروف بـ(كنز الوصول الى معرفة الأصول)، مطبعة جاويد بريس، كراتشي- باكستان، د.ت، د.ط.
- بول ريكور: نظرية التأويل- الخطاب وفائض المعنى، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ط٢، ٢٠٠٦م.
- جبور عبد النور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، د.ت، د.ط.
- الجرجاني، علي بن محمد بن علي (ت٨١٦هـ): التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م.
- جمعان عبد الكريم (الدكتور): إشكالات النص- دراسة لسانية نصية، النادي الأدبي، الرياض- المملكة العربية السعودية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ط١، ٢٠٠٩م.
- جورج مولينيه: الأسلوبية، ترجمة: الدكتور بسام بركة، مؤسسة مجد للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤٢٧هـ -٢٠٠٦م.
- جوليا كريستيفا: علم النص، ترجمة: فريد الزاهي، دار توبقال، الدار البيضاء- المغرب، ط٢، ١٩٩٧م.
- روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ترجمة: الدكتور تمّام حسّان، عالم الكتب، القاهرة- مصر، ط٢، ٢٠٠٧م.
- رولان بارت:

• من العمل الى النص، ضمن كتاب: دراسات في النص والتناصية، ترجمة: الدكتور محمد خير البقاعي، مركز الإنماء الحضاري، حلب- سوريا، ط١، ١٩٩٨م.

- موت المؤلف، ضمن كتاب: اتجاهات في النقد الأدبي الحديث، ترجمة: الدكتور محمد درويش، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد- العراق، ط١، ٢٠٠٩م
- نظرية النص، ضمن كتاب: دراسات في النص والتناصية، ترجمة: الدكتور محمد خير البقاعي، مركز الإنماء الحضاري، حلب- سوريا، ط١، ١٩٩٨م.

- زتسيسلاف واورزنياك: مدخل الى علم النص- مشكلات بناء النص، ترجمة: الدكتور سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة- مصر، ط٢، ١٤٣١هـ -٢٠١٠م.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله (ت٧٩٤هـ): البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ١٣٩١هـ -١٩٧١م، د.ط.
- الزمخشري، جار الله محمود بن عمر بن أحمد (ت٥٣٨هـ):
- أساس البلاغة، دار الفكر، بيروت- لبنان، ١٣٩٩هـ -١٩٧٩م، د.ط.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، د.ت، د.ط.
- الزواوي بغورة (الدكتور): الفلسفة واللغة- نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، دار الطليعة، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٥م.
- السرخسي، محمد بن أحمد بن سهل (ت٤٩٠هـ): أصول السرخسي، مطبعة دار المعرفة، بيروت- لبنان، د.ت، د.ط.
- سعيد حسن بحيري (الدكتور): علم لغة النص- المفاهيم والاتجاهات، مؤسسة المختار، القاهرة- مصر، ط٢، ١٤٣١هـ -٢٠١٠م.
- سعيد علوش (الدكتور): معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م.
- سعيد يقطين (الدكتور):
- انفتاح النص الروائي- النص والسياق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ط٣، ٢٠٠٦م.
- تحليل الخطاب الروائي- الزمن، السرد، التبئير، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ط٤، ٢٠٠٥م.
- من النص إلى النص المترابط، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ط١، ٢٠٠٥م.
- سيروان عبد الزهرة الجنابي (الدكتور): الإجمال والتفصيل في التعبير القرآني- دراسة في الدلالة القرآنية، المركز الوطني لعلوم القرآن، بغداد- العراق، مطبعة النماء- بغداد، ط١، ١٤٣١هـ -٢٠١٠م.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ): الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: سعيد المندوب، دار الفكر، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (ت١٢٥٠هـ): فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار الفكر، بيروت- لبنان، د.ت، د.ط.
- الشيرازي، أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف (ت٤٧٦هـ): المعونة في الجدل، تحقيق: الدكتور علي عبد العزيز العميريني، جمعية إحياء التراث الإسلامي- الكويت، ط١، ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م.
- صلاح فضل (الدكتور): بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، الجيزة- مصر، طبع في دار نوبار للطباعة، القاهرة- مصر، ط١، ١٩٩٦م.
- طه عبد الرحمن (الدكتور): اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ط٢، ٢٠٠٦م.
- عبد القادر شرشار (الدكتور): تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق- سوريا، ٢٠٠٦م، د.ط.
- عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب- مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.
- عبد الواسع الحميري (الدكتور): الخطاب والنص- المفهوم، العلاقة، السلطة، مؤسسة مجد الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٩هـ -٢٠٠٨م.
- العمادي، أبو السعود محمد بن محمد (ت٩٨٢هـ): إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، د.ت، د.ط.
- فان دايك: النص والسياق- استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة: الدكتور عبد القادر قينيني، أفريقيا الشرق- المغرب،٢٠٠٠م.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت١٧٥هـ): العين، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، مطبعة صدر- إيران، ط٢، ١٤٠٩هـ -١٩٨٩م.
- فرديناند دي سوسير: علم اللغة العام، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، دار الكتب للطباعة والنشر- جامعة الموصل- العراق، ١٩٨٨م، د.ط.
- فولفجانج هاينه من وديتر فيهفيجر: مدخل الى علم اللغة النصي، ترجمة: الدكتور فالح بن شبيب العجمي، النشر العلمي والمطابع- جامعة الملك سعود، الرياض- المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ -١٩٩٩م، د.ط.
- كلاوس برينكر: التحليل اللغوي للنص، ترجمة: الدكتور سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة- مصر، ط٢، ١٤٣١هـ -٢٠١٠م.

- كلماير وآخرون: أساسيات علم لغة النص، ترجمة: الدكتور سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة- مصر، ط١، ٢٠٠٩م.
- ليندة قياس: لسانيات النص النظرية والتطبيق- مقامات الهمذاني انموذجاً، مكتبة الآداب، القاهرة- مصر، ط١، ١٤٣٠هـ -٢٠٠٩م.
- محمد خطابي (الدكتور): لسانيات النص- مدخل الى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ط٢، ٢٠٠٦م.
- محمد الشاوش (الدكتور): أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، منشورات جامعة منوبة- تونس، بالاشتراك مع المؤسسة العربية للتوزيع- تونس، ط١، ١٤٢١هـ -٢٠٠١م.
- محمد العبد (الدكتور): النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة- مصر، ط١، ١٤٢٦هـ -٢٠٠٥م.
- محمد محمد يونس علي (الدكتور): المعنى وظلال المعنى- أنظمة الدلالة في العربية، دار المدار الإسلامي، بيروت- لبنان، ط٢، ٢٠٠٧م.
- المعتزلي، أبو الحسن محمد بن علي بن الطيب (ت٤٣٩هـ): المعتمد في أصول الفقه، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، د.ت، د.ط.
- نصر حامد أبو زيد (الدكتور): مفهوم النص- دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان، ط٤، ١٩٩٨م.

الدوريات العلمية:

- بول ريكور: النص والتأويل، ترجمة: منصف عبد الحق، مجلة العرب والفكر العالمي، بيروت- لبنان، ع٣، ١٩٨٨م.
- ربيعة العربي: الحد بين النص والخطاب، مجلة علامات- المغرب، ع٣٣، ٢٠١٠م.

المراجع الأجنبية:

- M.A.K. Halliday And R. Hasan: Cohesion In English, Longman Group Limited, London, Second Impression,1977.